رواية

نبضة

آية جمال

نبضة

رواية

الكتاب : نبضة
المؤلف : آية جمال
تصميم الغلاف : محمد مجدي
مراجعة لغوية: إسلام علي
رقم الإيداع : 2015\19611
الترقيم الدولي : 8-25- 6495-977-978

***

دار الميدان للنشر و التوزيع
جمهورية مصر العربية
هاتف 0552311408 / 01224245429
Website: www.daralmidan.com
E-mail: almidan@daralmidan.com



نبضة

وسنبدأ من نهاية لا تكتمل كسمفونية يقاطعها ضجيج الحياة!

(1)

(طريق طويل أسير به دون وعي، دقات متخاطفة تقول لي باستمرار:

"هل ترحم ضعفي فقط؟"

متاهة تأسر أوردتي بكتمان يفوق الوصف، وها أنا رغم كل ذلك مازلت أبتسم لأيامي، مازلت أحيا رغم موتي، مازلت أقوى رغم يأسي، مازلت وسأزال الضائع الذي يتمنى ذات يوم أن يكون).

انتهى من كلماته فسمع تصفيقًا من الجميع فقد اعتاد ذلك ولكن هذه المرة اختلف الأمر كثيرا؛ فبمجرد أن نزل من المسرح وأشجانه تثقل جسده الذي لم يتبق به سوى الذكريات الدفينة ورغما عنه ابتسم بقوة بتحد بتمرد لتتصنع ابتسامته كبرياء تداهم به آلامه لكي يرحم فقط شفقة الناس على قلبه واختفى كالعادة ولكن ليس كالمرة السابقة!

اختفى وبداخله نيران هادئة تقول له: "لِمَ أيقظتني الآن؟!"

ليستيقظ من دهاليزه على صوت سواقه:

"على فين يافندم؟؟"

فيجيب بشرود:

"إلى الماضي"

"عفوا!؟"

*****

(2)

كانت تؤثر به لدرجة أنه كان يعجز دائما عن تفسير ما يحدث له.. فينسحب من الحياة تدريجيا ليسكن ولو للحظة في شمس عينيها الدافئة وحينئذ تذكرها!!

وهو شارد تماما ناظر إلى الشوارع وهدوئها من نافذة سيارته تذكرها رغم محاولاته البائسة.

(فدائما ما يخذلنا النسيان عند إجباره على أشياء تفوق طاقة تحمله)!

وفجأة توقفت السيارة في ظل هذا الشرود المحيط به، ليفيق على:

"وصلنا!"

(فما أسوأ أن تمر لحظات حياتنا سريعا ونحن مازلنا مقيدين في سلاسل الماضي بلا حياة!)

قالها لنفسه وابتسامته مليئة بالأسى. حينها خرج من سيارته ببطء تنتظر فيه عقارب الساعات، واقفا يتأمل لفيلا كبيرة أمامه واضعًا يده في جيب بنطال بذلته وقلبه يتساءل:

"هو ده بيتك !؟"

لينتبه في ذات اللحظة إلى زوجته وهي تشير له من الشرفة

بفرحة هائلة.

"ماتستحقش منك كل القسوة دى !" قالها ناظرا لها بشرود وهو يمشي بخطوات مثقَلة إلى أن وقف أمام باب منزله ليجدها أمامه مباشرةْ وسرعان ما ارتمت في أحضانه وقالت معاتبة بحنان:

"هُنت عليك يا حبيبي تسبنى كل ده لوحدى !؟"

ليجد انفاسه تضمها كأنه يختبئ من كل شيء، كأنه ينظف قلبه من دماء جراحه ليرتاح وليذبحها بها دون أي ذنب، الذنب الوحيد لعبة الحب الحمقاء التي قرر أن يلعبها ببراعة ممثلٍ في الأساس لا يجيد معرفة قواعد التمثيل!

هَمّ أن يبرر خطأه في حقها؛ لتضع يدها على فمه قائلة:

"ماتقولش اى حاجه كفاية ان وحدتى بتحسدنى علشان بفكر فيك "

ثم قبلته بدفء مكملة:

"بحبك!"

فدمعت عيناه ليصرخ به ضميره

" كفاية ياوجع قلبى !"

ليهرب مرة اخرى بصمت من كل شيء إلى أحضانها.

وأول الأشياء (هروبه من الشيء إلى اللاشيء)!

*****

(3)

صعد درج فيلّاه ليصل إلى غرفته بثقل كأنه يجر في جسده ويوقظه لكي يفيق من جديد.

سلمة تلو سلمة، دقة تزيح دقة، أنفاس متقاطعة وجسد مترهل مجهد من كل شيء وطَرقات يدق بها بقدمه ليسمعها أنين قلبه (فسلاح الذكريات يستطيع أن يسطو علينا ببراعة)

صعد وإلى أن وصل.. فتح غرفته ووقف أمام سرير نومه يتأمله!

(فطالما كانت المشاعر ظالمة ومظلومة في آن واحد ولكن أين هو من ذلك؟!)

وقف كما هو مسحوب من كل شيء ولم ينتبه على صوتها:

"(ياسر)"

فاقتربت منه أكثر وهي تقول له:

" رحت فين ؟"

فابتسم وأجابها بعد لحظات:

"لقلبك" !

"كم أنت كاذب!" قالها نبضه في ذات الوقت؛ فوجدها ملأت حياته ولم ير غيرها.

فلمَ تزوج إذن!؟ حقا لا يعلم (هل لأن عقله قد اختار له ذلك القَرار؟ أم أن إحساس قلبه قد يئس منه ولابد من الفرار؟) فلم يملك وقتها سوى محاولة بائسة للتغلب على مفاتيح أشجانه لكي . لا تقتحم ما بداخله على الأقل أمامها!

تذكّر حينما كانا يجلسان معا في مقهى قريب من البحر، مقهى كانا يسميانه (الحياة) رغم أنه مجهول الاسم ولا يُقدم عليه الكثير من الناس وبعيد عن كل شيء!

(فلماذا إذن الحياة!؟) فبعد صمت وشجن ونظرتهما معا لأمواج البحر التي تتمايل لتدفئهما بهدوء، قالت:

"تعرف اننا مختلفين عن الدنيا كلها ؟"

ليضحك متعجبا من ملاحظتها لذلك قائلا:

"واى الغريب !؟"

- "الغريب هو حبنا!" قالتها بخجل.

لتدع ليده العنان أن تقترب من يدها وتحتضنها بقوة، ليقول بهمس : "الحب هو الصنعنا.. الحب هو الخلى الأمواج تهدّئ أشواقنا.. الحب هو ال خلاك أنت (يسر) وأنا (ياسر) أسماء هتتحفر فى الحياة دى لأخر العمر"

ليعود حديث الصمت مجددا وهو يتأملها كصورة صنعتها آلأشواق.

وتكتفي هي بنظرة طويلة كلها أسى وحنين وخوف.. تكتفي بها "بنبضى".

اخرجته من قيوده لينتبه مرةه اخرى على صوتها "انت مش معايا خالص!؟"

"انا معاك اهه" وقبّلها وهم أن يلهيها عن شعورها به مكملا:

"امم شامم ريحة اكل يجنن"

فضحكت بشدة وهي تخبطه برفق على صدره قائلة: "مش بتحمل بجد تشتاق لحاجه غيرى حتى لو كان الأكل !"

"مجنونة!" قالها بضحكة تصد رماد اوجاعه فاقتربت منه ونظرت إلى عينيه مباشرة لتهمس بين أحضانه:

"أنا الماضي والحاضر والمستقبل"

(وليدق جلد ضميره من جديد)!

"أنتِ وطني!" لمعت عينها له والتقطت أنفاسها محاولة أن تتكلَم:

"دايما كنت بحلم أن الكلمة دى تتقالى وبالذات بعدما سمعتها من (محمود درويش)"

فنظر لها بضجر، لتضحك بشدة مكملة كلامها:

"أنت غيران من شخص أنيس التراب يا مجنون!؟"

حاول أن يسترد توازنه من صراع ذهنه من لقطات مشاهد لم تمحى رغم محاولاته قائلا لها:

"أهون عليكِ تأكلينى أكلً باردًا!؟

فأمسكت بيده متجاهله مايقول بتحايل يمزقه وقالت:

"تعرف ان عدى وقت طويل اوى ماسمعتش اسمى منك !"

(عندما نطلب أشياء من مَن نحب دون رغبة منه أن يفعلها، نُعيَش أنفسنا بأكبر وهم تصنعه قلوبنا لنصبرها على مرارة قاسية)

أشفق عليها وقال: "نور ال دايما عمرى ما استحقيت عطائها فى يوم"

"حبيبتى"

وكذب مرة أخرى!

*****

(4)

استيقظ من نومه مبكرا وكانت في الأغلب نائمة كعادتها، صلى (الفجر)، فكان الفجر هو البداية بالنسبة له كما كان النهاية في ذات وقت!

أعد لنفسه فنجان قهوته المميزة، وخرج إلى شرفته لينتظر الصباح .

وجاء! (فطالما كان يعتبر أن كل صباح بداية للكثير من الآمال حتى ولو كان في الأمس عكس ذلك، وهذا ما تعلمه منها أيضا)

تعلم منها أن ينتظرها مثلما تنتظره في ذلك الوقت لتكون شمس الصباح مرسال تحيتهما المعتادة، فبمجرد أن تشرق الشمس يبتسم لها ويجلس لدقائق ثم يدخل إلى غرفته من جديد.

فدقائق تكفيه حتى لا تقترب منه أكثر بأشعتها وتعمي عينيه مثلما عميت آماله في يوم من الأيام!

وجد زوجته في ذات اللحظة قد فتحت عينيها فأبتسم لها من بعيد بخطوات هادئة قائلا:

"صباح الابتسامة الجميلة ال بتدينى الأمل كل يوم"، فأخذت يديه وقبلتهما لتغفل مرة أخرى بأمان، وهو جالس على المقعد المقابل واضعا يده الأخرى على وجهها لتيقظه نيرانه :

"اى ذنبها!!؟ اى ذنبها تعلقها بيك!!؟ اى موقفك لو حست فى مرة انك مش ...

فحتى هو لم يستطع إكمال الجملة؛ فهو أجبن من أن ينطقها. وكيف ينطقها ومتى ولماذا إذن!؟ فهو الذي اختارها هروبا.

(ما أصعب أن تتوهم أنك سعيد في حياتك وأنت بالفعل تموت من داخلك في كل لحظة!!)

فتحت عينيها بعد ساعة من الزمن!

ناظرة له كأنها تراه لأول مرة في حياتها نظرة تفتضحه وتعريه من داخله.

(فدائما كان إحساسها يتغلب على كل شيء، فهل سيعجز عن اختراق قلبه!؟) تجنب نظرتها وقال لها مبتسما: "أخيرا الكسلانه فاقت "

فابتسمت مبالية حديثه.

ليتعجب من رد فعلها؛ فغالبا تشاكسه بعباراتها البريئة معه. وقالت له:

"هو انت ليه بعيد كدا ؟"

انقبض قلبه فجأة فقال:

"ما انا قريب اهه!؟"

لتبتسم مرة أخرى بحسرة يملئها الصمت

لم يسترح لها ورغم ذالك لم يتجرأ ان يتكلم او يقول اى شىء

فقالت هى :

"شوف اوضتنا جميلة ازاى !

فاكر لما قلتلك أني هختار كل حاجه فيها حتى لونها؟"

وضحكت فجأةً ساخرة:

"وأنت ماعرضتنيش ابدا لدرجه أنك اتحمست اوى هه للدرجه دى !"

ثم دمعت ومن شدة بريق عينيها لم يلاحظ ذلك!

(فما أصعب حواجز الآلام التي تُعمي إحساسنا بغيرنا!)

أدارت وجهها عنه للحظة ثم نهضت بقوة من سريرها وهي تقول:

"الكسلانة النايمة فاقت اهه وهتعملك احلى اكل فى الدنيا "

ـ "تقصدي (حبيبتي)؟"

قالها لتبتسم مجددا لوجعها، وتحاول أن تنتصر عليه بكلمة واحدة فقط. "اصبرى!"

(فما أعجبنا حينما نتداوى من إحساس الآخرين ونحن في الأساس الداء لهم!)

ذهبت تعد له الإفطار وهو واقف طويلا أمام دولاب ملابسه؛ فدائما ما يحتار في اختيار مايرتدى ! كان منمقًا في ملابسه لدرجة هائلة.

فدائما ما يحب اختيار الألوان التي تلائم جسده ولون بشرته وكان لونه المفضل دائما الأسود.

(فلهذا اللون جاذبية لا تقاوم!) كانت بشرته فاتحة يهتم بنفسه إلى درجة المبالغة كما تزعم (هالة). عريض المنكبين، طويل القامة، جذاب لدرجة كبيرة؛ فحين يُنظر له للمرة الأولى تحاوطه العيون بلا مقدمات، أزرق العينين، يهتم باستمرار بممارسة الرياضة وخاصة الجري.

كان يجري لمسافات طويلة دون أي تعب إلا مرة واحدة! اختار قميصًا أزرق وبنطالًا أبيض غريبًا على غير عادته، ونظر إلى المرآة يرى نفسه وهو يرتدي ملابسه، وانتبه على صوتها:

"يا الله !! وأخيرا لبست الطقم ال اخترته لعينيك الجميلة دى"

- "اى رأيك ؟ "

فاقتربت منه قائلة برقة:

"(ياسر) دايمًا جميل في كل حالاته"

(أخيانة القلب تصل للملابس!)

ما هذه المشاعر الفياضة!؟ كل شيء بها ينبض. لها عينان خضراوتان واسعتان، شعر كستنائي منسدل برِفق على منكبيها، شفتان صغيرتان مرسومتان كأنها خلقت لكي تُقبل برفق فقط.

حسس بيده على وجهها قائلا:

" قد اى أنتِ جميلة!"

لتلمع عيناها راقصة على أنغام كلماته: "جميلة بس علشان قلبك بينبض جوايَا اهه"

ليتلاصق جسداهما بين نبضة تائهة وبريق حائر لا يعلم إلى أين يهتدي!

*****

(5)

هتيجى المكان ده فى يوم، و أتمنى من ربنا أنك تفتكرنى!

قالتها منذ 4 سنوات!

والآن تحققت كلمتها وذهب بمفرده.

ترك زوجته وقادته رجلتيه إليه دون سواق.. دون بذلة روتينية... دون أي شيء سوى ذنب !، قميص يرتديه، ودفتر يومياته وقلمه اللذان مازالا معه منذ أن تركها في هذا المكان.

ولكن فقط لماذا الآن؟!

(فما أسوأ أن تجمعك الأيام ببقايا الأشجان، ببقايا سراب لا تمحيه الأيام! ما اسوأ ان تجمعك بصفعه قوية خزلت وجهك ذات يوم وآلام لم يداويها الوقت والكتمان)

نظر إلى البحر طويلا وتنهيدة تخرج لترحب بسماء صافية تصاحب صورتها وأمواج تتنفس بعطرها.. كل شيء شعر بوجوده يعاتبه على افتقادها!

طلب قهوته المظبوطة وأخذ يرتشفها بخفقة، بهدوء، ورنين الموج يهاتفه يسأله عنها!

أين هي؟!

لماذا لم تأتِ معك!؟ "أوه!" قالها وبدأ يكتب.

وكانت المرة الأولى التي يكتب فيها بقلم وورقة منذ رحيلها، بعيدا عن وسائل التواصل الاجتماعي التى يتزيف به الأخرين!

وبدأ قلمه :

(إن الفراق يعلمنا إبداع الكتابة برسم جراحنا على الأوراق.. فماذا لو الجراح نفسها تتوقف عن شفقة الأوراق عليها فحتى الجراح لها ألف إحساس يجب أن نلمس له العنان)!

جلس بصراخ هادئ حتى انتهى ، وانتزع الأوراق من دفتره واقترب من الأمواج أكثر وأخذ في ذات اللحظة ينظر إليها وهي في يده طويلًا، ثم فجأة قطّعها وجعلها كومة كبيرة ووضعها في كيس صغير رآه بجانبه ليربطه جيدًا ويلقيه في المياه!

ألقاه كأنه يريد أن يُنهي معاناة ذبحت عبير سنوات لا ذنب لها سوى أنها تريده أن يكون سعيدا ولو ليوم! فحتى الأمواج لم تسلم؛ هاجت وارتفعت كأنها تتمرد على ثقل ما ألقاه بها.

" هى آلام الذكريات ثقيلة اوى كدا!؟".. قالها لنفسه ليدير ظهره ويرحل!

الكثير تغير من حوله وخاصة الأشجار التي تحاوط المكان ثائرة على كل شيء وإلى أزهار التوليب البيضاء التي تأخذ الأنظار بحنين دفئها وبريقها، فكم تشبهها وكم تعشقها!

كان مكانًا دافئًا لا يعبأ بأي شيء سوى بالطبيعة الهادئة بعيدا عن ضجة البشر وصراعهم الذي لا يهدأ.

رغم أنه كان مختلفًا ذات يوم.

كان شبه مهجور ولا يتواجد به سوى شجرة واحدة حُفِرت عليها أسماؤهم كأنها أول شيء يولد في هذا المكان.

اندهش كثيرا منها؛ فحتى هي تغيرت ولكن لماذا لم ينبت بها ولو فرع من الأوراق!؟

اقترب منها ليجد أسماءهم كما هي.

"الحب الذي لا يستطيع الموت أن يخترقه

ياسر ويسر 2012/10/20م

الساعة 5 عصرا."

- "عارف هنتحدى غروب الشمس مع بعض... هتغرب كل يوم وهي شايفه حبنا محفور على الشجرة دى وعمرها ماهتحدوا معاها وتغيب مهما جصل"

فداعبها قائلا:

"أنتِ متأكدة؟"

لتنظر له بتحد:

"هتشوف بنفسك يا أستاذ"

فضمها ساكنا قائلا:

"التحدي الوحيد ال هقبله فى الدنيا دى اتك تمنحينى الحياة بين نبضك!"

دمعة أحرقته بهدوء لهيبها الصافي وهو يتذكر كل شيء كأنه حدث الأمس.. كأن لا شيء انتهى ومازالت معه!

فهي بالأساس معه وما الجديد في ذلك بالنسبة له!؟

(ما أسوأ أن يقودك قلبك إلى أماكن ذكراك لتلتمس بها عزاءها فتجدها تحطمك من جديد !)

يمشي ويمشي ويمشي وكل شيء يهاتفه:

"(يسر)!"

*****

(6)

في هذا الوقت الذي غادر به كانت تزين المنزل بأروع ما يكون لأن اليوم عيد زواجهما! يا إلهي! نظرتها له، دمعتها وعتاب قلبها . كيف ينسى كل ذلك وكيف لا ينتبه!؟ ولكن ما المشكلة لطالما اعتادت على هذا الأمر!؟

(ونتحمل كل شيء باسم الحب ما أغبانا!)

اتصلت بصديقتها (هالة) وهي مغمورة من فرحتها وشجنها في ذات الوقت:

ـ "ألو.."

ـ "ألو"

ـ "هالة البسى هدومك يلا وعلى السريع الاقيكى فى وشى"

:"اوف كالعادة انتى مابتزهقيش بجد"

ـ "هالة!"

ـ "خلاص جية"

كانت فيلاها قريبة كثيرا من نور بل كانت مثلها تماما (فيلا واسعة قريبة من الساحل الشمالي أمام موج البحر الذي يصبح على نافذتيهما كل يوم، ويحاوطها حديقة كبيرة مليئة بالأزهار

والنخيل، مع الاختلاف بأن حديقة (نور) كانت كلها أزهار القرنفل (فكم كانت تفضلها منذ صغرها!).

ارتدت ملابسها سريعا؛ فكانت تعلم جيدا ما تفعله صديقتها في مثل هذا اليوم!

"هتفضلى طول عمرك غبية !؟"

قالتها بانفعال وصفقت باب فيلاها لتذهب إليها..في استياء تام!

مازال تائهًا مصاحبا لأشجانه ضائعًا بين بعثرة الأشياء من حوله، إلى أن خرج ووجد نفسه أمام منزله (أكانت قريبة منه إلى هذا الحد!؟)

(حين تبدأ بمصافحة ماضيك من جديد ستتجاهل كل شيء وستندم فى وقت لا يصح فيه الندم ولو بقطرة اخلاص !)

رآه من بعيد لتدمع عيناه مجددا متذكرا مصير زوجته فقال :

"لحد امتى!؟

"لحد امتى يانور هخليكى تدوقى من نفس كاس وجعى!؟"

وصلت إلى منزل صديقتها وأخذت تتمتم بكلمات تلعن بها الحب ذاته!

وحينما وصلت إلى باب فيلاها أخذت تدق الجرس ولم يجب أحد.

"اى ده!؟" قالتها بتعجب.

فأخذت تدق بعنف وتخبط وترن جرس الباب دون أي جدوى.

فانقبض قلبها.. ولم تر في هذه اللحظة سوى أن تتصل بياسر!

أخرجت تليفونها من حقيبتها البيضاء، وأخذت تتصل وتتصل دون أي جدوى!

" وراح فين ده كمان!!؟"

"يا ربي !" قالتها باستغاثة من الله أن تكون صديقتها فقط بخير!

نزلت مرة أخرى وطلبت من البواب أن يأتي معها، وذهبا على الفور وأخذ يدق ويدفع بكامل جسده في الباب حين انفتح، ثم شكرته وطلبت منه أن ينصرف، وتراجعت في خوف سريعًا قائلة:

"لا خليك برا استنانى ".. انتابها شعور غريب في ذات اللحظة!

ظلت تدخل وتنادي:

"نور حبيبتي!"

إلى أن وجدتها على الأرض وشعرها منسدل على وجهها، وبلالين والزينة كثيرة تلتف حولها.

فانتفضت نحوها توقظها بواسطة كوب ماء على منضدة قريبة منها، فأخذته وسكبت على يديها بضع قطرات لتحسس بها على وجهها إلى أن (استيقظت)!

(7)

حاول مرارًا أن يتغلب على مشاعره، أن يعيش وينتبه إلى حاضره، ولكن بلا جدوى. كان عندما يكتب يكتب لها، وعندما يبكي يستنجد بها (كانت كل شيء في الوقت الذي لا يساوي حبه هذا أي شيء) أكمل طريقه في شوارع فارغة مثله تمامًا! كانت السابعة صباحا وكان في مثل هذا الوقت لا يتواجد فيه الكثير. خطواته متقطعة يصحبها ضجيج يبالى به جسده!يركل بقدمه كل حجر يقابله ليرميه بعيدا إلى أن انتبه ورأى أمامه طفلة صغيرة تبكي ومعها باقة كبيرة من أزهار التيوليب البيضاء!

مرتدية فستانًا أزرق قصير فوق ركبتيها وحذاءَ أبيض صغير، شعرها طويلًا وناعمًا ولونه أسود داكن وكان يتطاير فيظهر بريق وجهها الأبيض الدافئ وعينيها البنيتين الواسعتين الرائعتين.

كانت براءتها تظهر تكمن ببكائها الرقيق، شاهدها جالسة على الرصيف المقابل له وهي تحتضن أزهارها ودموعها تنسكب عليها ترويها حتى لا تذبل!

فتعجب بشدة واقترب منها وهو يبتسم وقال:

"ازاى طفله جميلة زيك تعيط كدا!؟"

نظرت له بدهشة وتوقفت عن البكاء.

فقال: "اسمك اى ؟"

(راما) قالتها بخوف.

ـ "الله!اى الأسم الجميل ده!" أمسك يديها الصغيرة وقبلها وهو يقول لها ذلك.

لم ينتبه لنفسه جلس بجانبها على الرصيف وأخذ يلعب معها ويداعبها وكان هناك محل حلوى أمامهما فهَمّ سريعا واشترى لها مثلجات وأثناء عودته إليها وهو يحمل هذه الأشياء، انتبه إلى ورود التيوليب البيضاء.

"وكأن كل شيء يشتاق لها اليوم!"

ثم أعطاها المثلجات وهو يقول:

"اى الورد الجميل ده"

فلمعت عيناها وقالت:

"اليوم ده من كل أسبوع بستنى هنا ماما الصغيرة علشان اوصل الورد ده للسما لماما وبابا ! "

شعر بشيء غريب من كلامها.

أخرج نفسه من شروده وقال:

"فين بيتك طيب ؟"

ـ " قريب من هنا" قالتها لتبكي مجددا، وتمتمت بالكلام:

" أنتِ فين ياماما!؟"

*****

(8)

ـ "نور أنتِ بخير الله يخليك ؟"

قالتها بصوت يصحبه القلق.

لتفتح عينيها ببطء وهي تبتسم قائلة:

"ياسر!"

نزلت من عين هالة دمعة ساخنة ولا تملك سوى أن تسندها لكي تساعدها على النهوض.

وبعد لحظات قليلة ذهبت إلى البواب وقالت له:

"عم حسن معلش روح جيب اى دكتور من المستشفى ال جمبنا "، ليرحل هو وتقفل الباب متجها إلى المطبخ لتحضر كوباً من الماء بكلمات تداعبها بها لتخرج نفسها معها من ازمة القلق :

"كده تقلقيني حرام عليكي!؟:

فقالت نور بصوت منخفض يغالبه التعب :

"هو إيه اللي حصل أصلا!؟"

فضحكت هالة وقالت:

"أيوة أيوة خضيني عليكي وافلتي منها انتي واعملي نفسك مش فاكرة حاجة!"

- "اممم كل اللي فكراه إني كنت بحضًر التورتة وبعلق الزينة علشان ياسر"

صرخت هالة في وجهها فجأة قائلة:

"ياسر ياسر!! لحد امتى!!؟ حرام عليكي نفسك بجد!! أكيد نسي كالعادة!"

فسالت دموعها وأدارت وجهها من أمامها.

فأشفقت عليها وأخذت تؤنب نفسها وذهبت لها بالجهة المقابلة من المقعد وأمسكت يدها قائلة: "هو من العدل إن قلبك يدق بس علشان يعاني!؟ هو فين؟!! هو فين علشان يشوف دموعك ومعاناتك!!؟ كفاية بس يعمل كل دا فيكي ويسيبك كدا !!"

- "هالة كفاية!!"

قالتها بعنف ثم اكملت بتنهيدات متفاوته تغالبها لتستطيع ان تتكلم "أنا بحبه إنتي مش حاسة بيا.... هو كل حاجة.. هو أنا ليا مين غيره ،نَفَسه ده بس بيدي الحياة لقلبي.. بيحسسني إني بنبض من جديد.. مش كفاية إني ماجبتلهوش أولاد وماعاتبنيش ولا زعل قدامي حتى أو بيِن أي حاجة علشان بس مايجرحنيش! اللي بحس بيه يا هالة ماحدش هيفهمه صدقيني!"

انتهت من كلامها لتفتح دون ان تشعر صناديق ذكريات صديقتها فقد كانت في يوم من الأيام تقول مثل كلامها.!

فأبتسمت هاله بآسى و قالت بعد لحظات: "تعالي نقعد قدام البحر إيه رأيك؟؟"

لتهدأ نور قليلا وتمسح دموعها وتقول كأن لم يحدث أي شيء:

"قبل أي حاجة تعالي أعملك كوباية عصير!"

(فحتى الجراح نكابر عليها أحيانا حتى لا نسقط في عين أنفسنا)

لتترك هالة لأسئلة لاتنتهى واهم سؤال يراودها:

"واخرتها !!؟"

*****

(9)

ظل جالسا مع راما وهي تحتضن الورود وتأكل المثلجات.

وهو يتأملها بعين طفل وبقلب رجل يتمنى ابنة كهذه، وأثناء هواجسه انتبه على صوت يقول له برقة:

"مش هتتغير!"

ووقت أن جاء الصوت انتفضت راما من مكانها وهي سعيدة وتصرخ:

"ماما جت !"

فنظر ليرى من هذه!

وكانت المفاجأة!

"يسر!!"

ظل جالسا لم يتحرك، أنفاسه تتهافت ودقات قلبه تتصارع وعيونه مذهولة تتأرجح في مكانها لتلتفت سريعا إلى كل شيء. من صدمته شعر بأنه بحلم أخذه ليلقي به إلى أسفل درجات الوهم. جراح تداويها الأيام لتنفتح بعنفوان من جديد بلا رحمة (أن تسترد روحك وأنت تعاني بمفردك أرحم مائة مرة من أن يفاجئك كل ما تخاف منه ويصطحبك مجدداً أثناء معاناتك)

ظلت واقفة في مكانها، وعند ركبتها راما تحتضنها بيديها الناعمتين. ظلت صامتة لتفتح ألف باب لحنين يحتبسه العتاب!

وهو لم يتحرك كأن جسده كله قد اعتزل دوره في هذه اللحظة.

تركا العنان لعيونهما لتقف دقات الساعة عندهم فقط لتتحكم به فجأة هذه الطفلة، فتشد بذراع يسر لتقترب منه.

خطوة إثر خطوة.

عنفوان متماهل لبعثرة مشاعر خامدة.

رنين لاشتياق يصاحبه اجتياح لا يتوقف.

دقات تدق بداخله كنيران تحرقه بهدوء رمادها.

ينظر لها وجسده يرتعش.

وهي مازالت تقترب وتقترب وتقترب، إلى أن أصبحت أمامه مباشرة، والطفلة بينهما تقول بحماس:

"دي ماما الصغيرة يا أونكل جميلة صح؟"

همَّ أن يقف ولكن خذلته رِجلاه فغَالبهما ووقف يلتقط أنفاسه يتعمد رسم ابتسامة شاحبة على وجهه!

والعيون ظلت كما هي تتحاكى!

متأملا ادق وابسط تفاصيلها

فهى الآخرى لم تتغير.. وجهها كالبدر، عيناها العسليتان المرسومتان كالفراعنة، فهكذا كان يقول لها دائما.

الشعر البني الفاتح، اللباس الأنيق الرسمي.

تنورتها القصيرة تحت الركبة تجسِّد خصرها برفق، وجاكيت بزراير بارزة على شكل فراشة مقفول بأكمله سوى فتحة صغيرة فوق صدرها لينسدل على رقبتها عقدها الرقيق

فدائما كانت أنيقة ودافئة في اختيار كل شيء.

ولكن ما تغير بها فقط أنها ارتدت اللون الأسود.لطالما كانت تكرهه!

ولا يعلم أنها ارتدته حدادا على قلبها منه!!

*****

(10)

أحضرت نور عصير المانجا؛ فكم تعشق إعداد العصائر

همت أن تعطيها إياه، حين دق جرس المنزل فقالت هالة:

"ارتاحى أنا هفتح "

ولحظة أن فتحت الباب، رأت رجلا أنيقا يرتدي بذلة رمادية داكنة، وبيديه شنطة صغيرة وبجانبه البواب.

فخبطت على رأسها وقالت: " نسيتك خالص!!؟"

فقال لها الطبيب: "نعم !"

فضحكت وقالت:

"لو شافتك صحبتى هتطردني من شقتها"

فتقبل روحها الفكاهية بضحكة منمقة بادل بها دعابتها قائلا: "هحل الموضوع متقلقيش"

كان البواب قد حكى له ما حدث، فقالت:

"ممكن دقيقة واحدة بعد اذنك ؟"

"طبعا" قالها لتدخل إليها قائلة:

"الدكتور برة ومافيش نقاش"

فهمت أن تتكلم بانفعال، لتذهب هى وتحضره.

دخل وأخذ يلتفت حوله من جمال فيلاها الصغيرة، فكم هي رائعة رغم حجمها. دخل إلى حجرة واسعة بها أنتريه مودرن يلتف بدوران لونه بنفسجي في أبيض وأمامه مكتبة كبيرة تتزين بالكتب والرويات الرائعة وأزهار قرنفل كثيرة حول شرفة مقابلة في الجهة الأخرى بابها شفاف والأمواج ترتسم من خلفها بدقة مبهرة.

وسلالم مموجة على شكل دائري، آخر كل سلمة رسمة على هيئة قلب صغير.

وما جذبه أكثر هذه الزخارف الكلاسيكية التي لا يعرف قيمتها سوى فنان حقيقي.

لينتبه لها أخيرا وتجذبه ببساطة جمالها وعينيها الساحرتين، ليتنحنح قائلا بعد لحظات من عالم صغير تملؤه روعة الخيال:

"أهلا يافندم استأذنك هنطمن بس على صحتك ؟"

كانت في هذه اللحظة تشعر بغيظها من صديقتها التي وضعتها في مثل هذا الموقف.

فكم تكره الأطباء! وبغض النظر عن ذلك ما ادار فى ذهنها ان ياسر ليس هنا، فكيف يدخل رجل غريب هكذا.

عقدت يديها على صدرها وهمت أن تتكلم بحدية ليهدئها بلباقته قائلا:

"احنا عارفين انك كويسة (الجمال ده مستحيل ان المرض يقتل روحه) بس هنطمئن مش أكثر والموضوع كله دقايق بسيطة "

أخرج أدوات الكشف من حقيبته، وأخذ يكشف على صدرها وعلى ظهرها، وإلى أن اقترب من عينيها ليكشف عليها، شعر بخفقات قلبه تسرع بشدة، فتمالك نفسه وانتهى من كشفه.

فليس للعمل مجال للعاطفة وخاصة الطب!

فكيف استطاعت ضربات قلبه أن تخفق هكذا!؟

جلس على المقعد المقابل لأريكتها وانتهى قائلا:

"الحمد لله مافيش اى حاجه ، بس ضربات قلبك سريعة شوية ، فهستسمحك وقت ماتفضى خالص تروحى تعملى تحاليل كامله علشان نطمئن اكتر"

ووقف على الفور ومد يده إليها:

"(دكتور أسامة)"

فاعتدلت من مكانها وبادلته التحية:

"نور وشكرا بجد تعبناك معانا "

فابتسم بأمتنان قائلا:

" ده واجبى يافندم استأذنك"

أوصلته هالة وأقفلت الباب خلفه، وأخذت تضحك بشدة وهي تقول لها:

"شفتي حتى الدكتور مقدرش يقاوم عيونك يا عسل أنت يا عسل"

فخبطت نور على ذراعها وقالت لها:

"حسابك معايا بعدين!"

لتضحك مجددا.

دائما كانت هالة اندفاعية في ردود أفعالها، ولكنها طيبة القلب لدرجة بأن كلمة واحدة تستطيع أن تتغلب على دموعها لإسقاطها، ولكن مع الأيام تعلمت أن ضعفها ملكها فقط ولا يحق لأي حد أن يمسس به. كانت إلى حد ما قصيرة، بشرتها خمرية، جسمها يتناسب مع طولها، تحب دائما الملابس التي تعبر على التمرد كما تقول هي وكما نسميها نحن بلغة عصرنا (الكاچوال) على عكس نور التي لطالما تميل لأرتداء الفساتين

تعرضت هاله لنوبة اكتئاب شديدة وظلت حبيسة في بيتها لمدة تقارب سنة كاملة، أثناء انفصالها عن حبيبها خالد بعد قصة حب دامت عشر سنوات!

كانت قصة يتحاكاها الجميع؛ حب لسنتين وخطوبة 7 سنين، فقط تنتظره وتكافح معه وترسم أحلامها لتجد نفسها في لحظة

بمفردها وسط كل ذلك. وسرعان ما انتهت بخيانة فاضحة مزقت قلبها بسكين حاد، وبكل بساطة يسافر ويتركها ضحية حبها البريء.

كانت نور بجانبها في ذلك الوقت. وبعدها قررت أن لا تحب مجددا، وأن لا تقترب من المعاناة مرة أخرى رغم أن الكثيرين في ذلك الوقت حاولوا الاقتراب منها وخاصة بعد وفاة والدتها وسفر أبيها وزواجه ولكن دون جدوى !

أخذت عصير المانجا من الطاولة وشدت نور وقالت:

"مش هتهربي مني.. ها تعالي بقى نقعد ونكمل"

ضحكت نور قائلة:

"مش وقتك بجد.. ياسر هييجي كمان شوية.. لازم أخلّص كل حاجة"

- "مش هييجي دلوقتي.. ممكن تتطمني هييجي على معاده كل سنة !"

- "لسة قدامنا وقت"

أخذتها وجلستا في الشرفة المطلة على رائحة الأمواج الهادئة، وكانت الساعة الحادية عشر صباحا وأشعة الشمس لحسن حظ هذا اليوم كانت دافئة.

"وأخرتها!؟"

قالتها هالة في ضجر!

فنظرت لها نور طويلا قائلة:

"مش عايزة أي مقابل ياهالة.. أنا فعلا تعبانة وحاسة إن حتى كلمة (حبيبتي) منه على سبيل المجاملة والشفقة.. بس أنا حبيته.. إزاي ف لحظة واحدة هاقدر أتخيل حتى مجرد التخيل حياتي من غيره!؟"

لتضيء عيناها كأنها تتذكر بشغف كل شيء مكملة:

"يااااه! فاكرة اتعرفنا إزاي؟ فاكرة أول سلام بيننا؟ يا الله بجد على دفا إيده ونظرته أخذتني معاها لبعيد أوي، ساعتها بس حسيت إن حبي بدأ ومعاه معاناتي إلى للأبد!"

"لما ماما وبابا ماتوا الله يرحمهم في يوم واحد وفي حادثة الطريق ما بين مصر واسماعلية، وقبلها موت أيمن خطيبي، ساعتها بس حسيت إنها النهاية، وكنت معايا لما اتنقلت في المصحة بنوبة اكتئاب حادة ضاع فيها صوتى لفترة كبيرة"

"ووقتها اتعرفت عليه.. كان معايا في نفس المصحة النفسية، وكان هو برده عنده اكتئاب حاد بس هو ماكنش بيسكت! مش هنسى أبدا أول مرة شفته فيها.. كنت لسة جاية وكنت مستغربة المكان جدا ومستغربة كل حاجة حواليا وكنت انتي جنبي فاكرة؟"

أومأت هالة برأسها.

فأكملت وعيونها تزداد لمعانا:

"هو الوحيد اللي شد انتباهي.... كان قاعد على كرسي حواليه ورود تيوليب ألوانها كانت حقيقي تجنن وقدامه فنجان قهوة وبإيده دفتر وقلم! فكرت ساعتها وقلت "يا ترى هو بيكتب إيه؟؟""

"تعرفي إن لحد النهاردة معرفش سبب دخوله المصحة دي!"

اندهشت هالة كثيرا ولكن شيئًا بداخلها أشعرها بأنها تكذب.

فأكملت لامبالية بصمتها:

"كنت دايما بافضّل جلوسي في حديقة المصحة زيه بالظبط، والأغرب إنه اتصادف وقعدت قدامه علشان كان الكرسي الوحيد اللي جمبه ورد القرنفل، وانتي طبعا عارفة أنا بحبها أد إيه.. في الأول كنت ببصله باستغراب وازداد استغرابي لما لقيته كل يوم بيكتب، فقلت لنفسي:

"إزاي شخص بيجي المكان ده، ويكون عنده القدرة إنه يتكلم ولو حتى مع قلم!"

"استغربت إنه بياخذ أنفاسه لأوراق بتفضح قلبه بسلاسة تامة.. وفضلت دايما معاه لحد ما حبيته!"

- "حبيتيه!!" قالتها هالة بأستنكار شديد!

"إزاي؟!"

فقالت نور :

"الحب مش بيدي فرصة لقلوبنا إنها تفكر أو ترتب أي حاجة.. بس بهدوء كده من غير ما نحس بياخذ إحساسنا وإحنا وحظنا بأة.. إما بيرفعنا لفوق أو بينزلنا لسابع أرض بلا رحمة"

وانتهت من جملتها الأخيرة لتتذكر هالة ما خشيت أن تقترب ذاكرتها منه، وسرحت طويلا والتفتت لجهة البحر كأنها تريد أن تلقي به ما يحجز أنفاسها، فشعرت نور بها واقتربت منها بدفء، وصمتتا معا!

(حقا توجد أشياء عديدة تفوق الكلام والشرح والاستيعاب، فنحتاج وقتها فقط إلى أذن الصمت لكي تحتضنًا بعيدا)!

*****

(11)

"يا لسخرية القدر !؟" قالها ياسر بين أنفاسه في ذهول تام.

شدت راما يده وقالت ببراءة:

"يلا يا أونكل سلِّم على مامتي"

(كم براءة الأطفال تزعجنا أحيانا عندما تفتح ما نحرص دائما أن يظل مخبئا)

نظر إليها وشفتاه تتنهدان ببطء وعيناه تدمعان بصمت.

و(يسر) تبتسم بحنين غير مصدقة ما يحدث.

اما عيناه فتتكلم قائلة:

"ياه!! أنتِ! وهنا!؟"

قطعت حاجز الصمت مرة أخرى الطفلة الصغيرة وشدته ليمد أخيرا يده إليها، دون أي كلمة، لتوالى الدقات مهمتها بدلا عنه.

فمدت يدها تدريجيا إلى يده، ومع كل لمسة خفقات لا تهدأ، إلى أن وصلت إلى كفه فضمها ليستشعر امانا يزلزله للحظات .

"إزيك؟" قالتها .

ليتجرأ محاولا إخراج الكلام من حنجرته:

" زى ما انا!!"

فهرولت الطفلة الجميلة وأخذت تقفز بفرحة وتقول:

"يلا يا ماما علشان ألحق أودي الورد علشان مايزعلوش مني!"

ضمتها يسر إلى أحضانها وياسر ناظر باشتياق قائلا لنفسه: " وحشنى حضن...!" ليقطح جراح قلبه تكملة جملته ويسكته بـ(كفاية!)

قاطعت شروده قائلة:

"لوحبيبت تيجى معانا مافيش مشكلة"

ليقول بتردد:

"لا لا شكرا"

أخذت راما تحايله إلى أن بكت فاضطر أن يأتي معهما!

"نور.. لحد امتى؟"

قالتها هالة مجددا وخاصة بعدما تذكرت كل شيء.

(حين تشعر قلوبنا بالجراح نخاف أن يتذوق الأخرون من نفس الكأس فنندفع أحيانا في نصيحتهم بلا رحمة...!)

- "تاني يا هالة!؟"

- "آه تاني وتالت ورابع.. خايفة عليكي.. خايفة توصلي للي وصلت ليه.. فاكرة خالد ولا نسيتي!؟ ياسر دايما بيتعامل بطريقته، بيفكرني بيه.. عرفتي ليه دلوقتي مابحبهوش!؟ خايفة تتصدمي

على أكبر كدبة في حياتك.. صدقيني الكدبة بجد اللي انتي فيه ده وبتصدقيه في كل لحظة"

(نظرت لها بأسى)

فأكملت بحنان :

"حبيبتي طب انتي مش خايفة على قلبك ده!؟ الحب عطاء واحتواء فين هو من ده؟! هتقدري فعلا تتحملي!؟"

"ولو اتحملتي، لحد امتى وكل واحد ليه طاقة تحمل في كل حاجه!!؟"

"وصدقيني لو قدرتي تتحملي هتفضلي دايما مكسورة في عين قلبك!! مقهورة في عين نفسك"

قاطعتها وهي تتنحنح بإخراج صوتها:

"صدقيني كل حاجة هتتغير أنا عارفة، ولو مفيش حاجة هتتغير ليه موجود لحد دلوقتي!؟"

"غبية!" قالتها هاله وهي تضحك بشدة "انتي بتكدبي على نفسك بالكلام ده"

"يا ماما هو موجود علشان محتاج لده، محتاج يسمع محتاج يحس، بس مش محتاج يدي!"

نزلت من عينها دمعة أحرقت وجدانها.

(عندما ننجرح لا نكون أغبياء كما يزعم البعض بل ندعي الغباء لكي فقط ننقذ أنفسنا من المهانة)

ضمتها وأكملت:

"حبيبتي أنا مرايتك لازم أقولك الكلام ده علشان تفوقي من وهم لو سبتى نفسك ليه والله انتى بس ال هتدمرى انتى لوحدك !؟"

بكت هامسة لذتها:

"انتى بتطلبى المستحيل"

لترتمي فجأة إلى أحضانها وبصراخ:

"بموت يا هالة بجد"

(اين قيمتك حقا عندما تتعلق بقلب وأنت تعلم بأنه يتمسك بك على سبيل الشفقة، وتظل تتعلق به وتُكذِّب أحاسيسك لكي لا تموت من داخلك مع أنك بالفعل تموت في كل لحظة)!

*****

(12)

تمنى أن يستيقظ من هذا الحلم قريبا!

كانا يمشيان بجانب بعضهما وبينهما راما الصغيرة تمسك بأزهارها برفق تنظر له بفرحة (فبراءتهم تلهيهم دائمًا عن كل شيء، وأول الأشياء قساوة الأيام)

تساقطت في ذات اللحظة دمعة من عينها أزاحتها بيدها سريعا لكي لا يراها وإلى أن التفت لينظر إليها أدارت وجهها وأخذت تلهي نفسها بالحديث معها، واستمر هذا الوضع إلى أن وصلا، وكانت المفاجأة!

*****

(13)

أشفقت على صديقتها، وأخذت تلعن نفسها لأنها جعلتها تنهار بهذا الشكل.

أما هي فظلت في أحضانها تبكي ويرتعش جسدها.

(فأوقات، لا تحتاج قلوبنا سوى لحضن دافئ ترتمي به لتبوح بآلامها، فقط حضن واحد يكفي عن تساؤلات ليس لها جدوى في أي شيء)

ظلا في هذه الحالة مدة طويلة.

هالة صامتة تضم نور بشدة.

ونور تبكي وتصرخ وهي تحتضنها لتزيل أوجاعها بنبض قلبها!

لتقول فجأة :

"هو أنا جبتك هنا علشان أعيط!؟ يلا يلا مفيش وقت"

(لطالما كانت مكابرة في أحزانها بشكل كبير!!)

رسمت هالة ابتسامة رغما عنها وقالت بأستسلام تام:

"يلا"

دخلتا المطبخ سويا ليتأكدا بأن كل شيء جاهز ولكي تريها ما أعدته؛ فقد أعدت تورتة من 3 أدوار وكل دور فيه أغلى صور على قلبها معه"

فعندما رأتها هالة قالت: "أوووه إيه يا عم ده بس"

لتضحك نور بفرحة:

"بجد هتعجبه!؟"

"أكيد" قالتها بتردد ثم قالت لنفسها:

" لو شافها اصلا !!"

*****

(14)

انصدم من باب المقبرة!

إنها ذات المقبرة التي قضى بها 3 أشهر متتالية ينام بها ظنا بأنها ماتت هناك.

وهي مازالت جاهلة كل شيء!

نظر لها بقسوة وتذكر كل شيء في ذات اللحظة!

تذكر حينما أخبروه بأنها قد ماتت،

تذكر حالته ونقله إلى العناية المركزة.

تذكر حينما خرج وهو في أشد الحاجة إلى الرعاية ذاهبا إلى قبرها يبكي ويتألم ولم يهمه شدة المطر والظلام، تذكر حينما أخذه (أحمد أخوه) وأخبره بأنها مازالت على قيد الحياة ولكن...! تذكر بعدها نقله إلى المصحة النفسية من إصابته بحالة الاكتئاب، وحينها تعرف علي زوجته هروبا من كل شيء!

واقف أمامها وشريط كامل يمر أمام عينيه

(أحياتنا قصيرة إلى هذا الحد!؟)

هي تتعجب من نظراته وذهوله ولا تفهم أي شيء، وهو واقف أمامها يتذكر كل ما حدث في لحظة من الزمان!

(لحظة تكفيك لتعيدك إلى الخلف ألف خطوة لحظه فقط!)

هرولت راما سريعا إلى الداخل غير مبالية بكل شيء.

توقفت حينها المسافات، حتى جاذبية الأرض وعقارب الساعات استسلاما للحظة الموت بها خير من الف عتاب.

ظلا هكذا إلى أن ابتسم لها ساخرا ودموعه تتساقط من عينيه وقال:

"أنت تعملى فيا كل ده !!؟"

ليتركها ويذهب وهي كالصنم فى مكانها لا تعلم عن ماذا يتحدث!!!

*****

(15)

أكملت الزينة مع هالة ورتبا كل شيء، فكان كل شيء فوق الخيال لدرجة أن هالة قالت:

"كل سنة بتفاجئيني بحاجة تهبل يخرب بيت شيطانك!"

ضحكت نور بشدة وقالت:

"إحم.. مابحبش أتكلم عن نفسي كتير"

ليضحكا معا مجددا.

كان حقا كل شيء فوق الخيال، قلبت الشقة يومها رأسا على عقب فقط لكي تفرحه!

كان سقف الصالة مزينًا بنجوم تشع بريقًا هادئًا، وأزالت ورق الحائط القديم ووضعت ورقة حائط تحيط بالحائط المقابل أمام الأنتريه على شكل صورته ومعها كلمة (بحبك).

وبالونات كثيرة تلتف بجميع أركان صالة الفيلا على شكل قلوب وورد أبيض مع أحمر يتناثر في الأرض، ووروده الخاصة تزين السفرة كما يحبها دائمًا!

وعلى السلالم بلورات تضيء بأنوار خافتة تشع بداخلها ضوء لتظهر كلمة (أميري).

أما غرفة نومهما فكانت عالمًا آخر من طراز خاص، طراز كلاسيكي ناعم، طراز لا يتكلم إلا عن قواميس العشق!

ستائر بيضاء شفافة يظهر من خارجها موج البحر الأزرق.

وسرير دائري تملئه أزهار القرنفل الحمراء والتيوليب البيضاء على شكل قلب وبداخله وردة كبيرة تيوليب بيضاء.

ولوحة حائط كبيرة بداخل الغرفة فيها صورتهما معا في ليلة زفافها وهو يقبلها!

وما أدهش هالة أكثر في دولابها المفتوح، فستان زفاف جديد!

لتقول بدهشة:

"إيه ده؟!"

لتضحك نور قائلة:

"ها إيه ده؟"

"اتجننتي!!؟ فستان فرح!!؟"

لتضحك أكثر وتقول:

"انتي عارفة عني إني عاقلة أصلا!؟ يا بنتي ده عيد جوازنا الرابع لازم كل حاجة تكون مختلفة"

فابتسمت هالة كأنها تحدث نفسها:

"انتي المختلفه ربي يحمى قلبك بجد!"

فقبلتها نور قائلة:

"يلا علشان أوريكي هديته بأة"

ـ "كل ده ولسة فيه هديته!؟" قالتها هالة لتداعبها نور وتمسك بيدها:

"ماتغيريش هجيبلك هدية زيه ولا تزعلي نفسك خالص"

ولتبدأ ضحكات الوهم من جديد.

*****

(16)

ـ "ياسر!"

"ياسر أرجوك استنى !"

لم يعرها أي اهتمام ولم ينظر لها.

فوقفت أمامه وقالت:

"أقسم بالله انا مافاهمه اى حاجه!"

ـ "هه!؟ نعم !!؟" قالها بسخرية.

"ممكن بس تمشي من قدامى !؟"

ـ "مش ماشية!" قالتها بعصبية ثم همت أن تكمل فقاطعها بكاء راما الشديد، ليلتفتا معا وهي واقفة خلف باب المقبرة خائفة من صراخهما!

فاقتربت يسر إليها وقالت:

"حبيبتي مالك!؟"

ـ "زعّلتو ماما وبابا.. كانوا فرحانين بالورد.. انتم وحشين!"

اقترب ياسر منها يداعبها:

"تيجي معايا؟"

فمسحت دموعها بيدها وقالت:

"لفين؟"

أخذ يدها الصغيرة وأدخلها مرة أخرى إلى المقبرة ورجلاه لا تحملانه وأنفاسه تتثاقل عليه، فتغلب على كل ذلك واقترب من قبر والديها وقال:

"بصي الورد بيحضنهم إزاي!"

"بصي هما فرحانين إزاي!"

ثم اقترب أكثر وأكمل:

"سامعهم أهه بيقولوا إحنا بنحبك يا راما"

ابتسمت وفرحت كثيراً وقالت له:

"أيوة أنا كمان سامعاهم"

ثم نزل على رقبتيه وهو يحسس على شعرها ووجهها:

"إيه رأيك بأة نسيبهم يناموا شوية ونجيلهم في وقت تاني؟"

فضحكت بفرحة:

"موافقة"

فأخذها على كتفيه ومشى بها.

و(يسر) تتأمله من بعيد ودموعها تنسكب على وجنتيها وتتمنى لو أن الزمن يعود فقط!

خرج ونظر لها بصرامة:

"بيتها فين ؟؟"

لتقول بصوت منكسر: "قريب من هنا"

فمشيا معا وراما على كتفه وهي تقول له:

"بحبك يا بابا الصغير" لتنام بهدوء.

(نجتاز مخاوفنا في لحظة لكي لا نحطم آمالًا بريئة أمامنا)!

ظلا يمشيان إلى أن عادا إلى نفس الشارع الذي شاهدها فيه، ومن ثم خلفه قد وصلا إلى بيتها.

فطرقت يسر الباب، وخرجت إليهما جدة كبيرة في السن سلمت عليهما وشكرتهما وأخذت راما وهي نائمة.

ففتحت عيونها وقالت وهي تبتسم:

"هتوحشونى"

فنظرا إلى بعضهما في هذه اللحظة وتذكرا كل شيء.

تذكرا عندما كانا جالسين على الشاطئ وهو يحتضنها من ظهرها وهي ترتدي فستانها الأزرق المفضل له، وينظران معا إلى السماء، وفجأة تقول:

"هجيب بنوته وهتبقى شبهك" ثم اقتربت ولمست وجهه وأكملت:

"اياك تحبها اكتر منى"

فشدها إلى أحضانه أكثر وقال لها وأنفه يلامس أنفها:

"أنتِ حبي الأول"

فقالت بخجل:

"هنسميها رحمة"

أخرجتهما الجدة عن شرودهما وقالت:

"اتفضلوا ادخلواماينفعش تقفوا كدا"

فانتبها لها ليرد عليها هو قائلا:

"ربنا يجزيكِ يا امى الصحة والعافية.. في وقت تانى إن شاء الله"

وبمجرد أن ابتعدا، وقفت يسر فجأة وهو بعدها بخطوات وكان الشارع فارغا لا يوجد به أحد وقالت بجدية:

"ممكن أفهم بأة!؟؟"

فرفع حاجبه وضحك مستهزئا وقال دون أن يلتفت لها:

"تفهمي إيه أصلا هو حضرتك يا دكتورة بتكدبي على نفسك ولا عليا

ولا عايزة تخلصي من عذاب الضمير!؟ اممم.. ولّا عايزاني أسمع مبررات فلسفية منك!؟"

ليكمل بضحكة أعلى تصد صراخ أوجاعه:

"متقلقيش.. (ال عنده زى قلبى معاه ربنا)!"

فقالت بأنهيار:

"والله العظيم انا ..."

فقاطعها بقسوة :

"قلت كفاية !"

"ياقسوة قلبك !" قالتها فتساقطت دمعة من عينيه بمرارة جميع معاناة السنوات التي عاشها

التفت نحوها فوجدها تبكي، فمسك يدها ووضعها على قلبه وقال ودموعه تسقط بمرارة أمامها:

"كل نبضة حبتك بجد.. قلبي ده عمل فيكي إيه علشان يعيش بالمأساة دي!؟"

ليبعد يدها فجأة ويكمل بعصبية:

"انتي تتحكمي بقدري.... انتي... تعملي فيا كل ده بدور براءتك الكداب !!؟ من أنت أصلا!!؟"

(17)

أدخلتها نور إلى غرفة مليئة بمعدات الرسم.

وكانت تطل مباشرةً على البحر ولكن من جهة الغروب (فحتى الشمس تخاف عليه منها !) كانت بدون ستائر وليس بها إلا نوافذ شفافة فقط هادئة إلى حد كبير؛ فدائما تختار ما يتناسب معه!

حتى اللوحات المعلقة بها في غاية الشفافية.

ـ "اوضة رسم!!"

قالتها هالة بدهشة كبيرة.

"هو ياسر بيرسم أصلا!!؟"

ابتسمت وأجابتها:

"تخيلي! ومع كده مابيرسمش غير مرات قليلة جدا، فقررت إني أعمل الغرفة دي خصوصا ليه"

ظلت هالة مندهشة للحظات ثم تنحنحت الكلام وقالت:

"اممم شاعر وكاتب ورسام.. انتى مش خايفة على نفسك!"

فنظرت نور لها بهدوء:

"حبيته "

وليبدأ الصمت من جديد!

*****

(18)

"خلّصت!؟؟" قالتها وأنفاسها على وشك التوقف.

فتمالك نفسه وهدأ قليلا وصمت.

لتكمل باندفاع قوي تدافع به عن ظلم وضعها في مكان لا يليق بإخلاصها:

"أقسم بربي انا مامستوعبة ردود افعالك دى"

"أقسم بحبي لـ...

فوضع يده على فمها ناظرا لها بقسوة، لتنتزع يده بقوة وتكمل بتحد:

"بحبي ليك!!"

قالتها فشعر بثقل نبضاته من جديد واستسلم لتكمل:

"فاكر حبى ليك؟"

"فاكر فراقنا!"

ثم صمتت للحظات وقالت بحدة :

" تعال معايا لوسمحت ؟؟"

وهو صامت شارد ناظر للأرض؟

فاقتربت من جسده ورفعت وجهه بيديها لتقول مجددا:

"هتيجى ؟؟"

ليستسلم مرة أخرى.

*****

(19)

ساعدتها قليلا في تجهيزات الأشياء المتبقية، وبعدما انتهى كل شيء، ضحكت وهي تقول:

"انتي عملتي كل حاجة.. ليه اتصلتي بيا ها!؟"

لتنظر لها بعمق.

فأخذت يدها وقالت بحنان:

"كل حاجه هتكون كويسة متقلقيش!"

فتنهدت نور.

ثم نظرت إلى ساعتها لتكمل:

"يادوب تحضّري نفسك بأة ياعروسة"

فضحكت نور بشدة.

لتكمل:

"يا رب دايما اشوفك كدا !"

*****

(20)

ذهبا إلى (الحياة)!

بداخله ضجيج لا يتوقف، تشتت، عدم استيعاب في أي شيء.

وهي تنظر لكل شيء حولها في هذا المكان لتستشعر ما به بحنين وخفق ودموع وابتسامة!

جلسا إلى طاولتهما التي كانت فيما مضى أفضل ما تكون!

والآن أصبحت سبب أكبر مآساة.

ولكن لم يجلسا متقاربين كالسابق.. بل جلسا هذه المرة أمام بعضهما، هي تنظر له بعين حائرة لا تعلم كيف تبدأ حديثًا يصعب البدء فيه من الأساس.

وهو يسند يداه تحت ذقنه يلتفت إلى الطاولة أحيانا وأحيانا أخرى إلى البحر!

بقيا هكذا طويلا إلى أن حركته بصوتها الشاجن الرقيق قائلة:

"دلوقتى جه الوقت انى اتكلم!"

ووقتها لم ينظر لها !

فتنحنحت وغالبت أنفاسها

"لما سبتك سافرت انجلترا علشان اعمل عملية قلب نسبة نجاحها1%"

فأتسعت عيناه بصدمة !

فأكملت وهي ناظرة إلى الطاولة:

" ماتستغربش!"

"سبتك علشان ماتتعبش بسببى ولا أمي كمان !"

"هه ماتعبش!"

فأكملت مبالية ردوده :

"بعد 4 شهور من العملية ، حصلى مضاعفات شديدة خسرت فيها شَعري ووزنى، حتى نفسى تخيل ماكنتش قادرة اخده لدرجة أن كوباية المایة ماکنتش بقدر امسكها !"

ثم بكت بشدة ونظرت إلى البحر تلتقط أنفاسها لتكمل مرة أخري:

"لما سافرت سافرت لوحدى حتى أمي ما اخدتهاش معايا، و ماكنش فى اى تواصل بينى وبينها علشان ماسببش تعب فوق تعبها والأسوء من كدا انى فقدت صوتى فى الوقت ده "

"استمرالوضع ده سنة كاملة، ففتكروا ساعتها انى مت ورجعت بعد سنة واربع شهور لما حسيت انى كويسة ولقيتها ساعتها .. "

ولم تكمل حروفها ليسبقها انين اجفانها في ذلك الوقت، ثم تماسكت لتكمل:

"ماتت!"

"ورجعتُ تانى للأسوأ!! وفى الوقت ده أُتحجزت مرة تانية بس في مصر ، طلبت من خالتي ساعتها انى اشوفك بس كانت دايما بتتهرب منى لحد ماجت الصدمة وعرفت انك ..."

وتركت العنان لتنهيدة

لتصمت من جديد.

وعيناه تتسع مذهولا ضائعا، خواطر تحدث نفسه:

"ماذا يحدث!؟"

"ماذا بي!؟"

"لماذا يا ربي!؟"

ليضع يده على جبهته. كأن صاعقة قد تركت كل شيء لتطيح به أرضًا.

أكملت حديثها بعد لحظات قائلة:

"بعدها سافرت على إنجلترا تانى وخوضت فترة كبيره للعلاج هناك وكملت ماجستيرى اهه ولسه جية من شهرين"

"واهه عايشه مع خالتى وفتحت مستشفى بأسمى على قدى كدا "

"الدكتورة النفسية (يسر جلال)" قالتها بتهكم واستهزاء!

اما هو ناظرا لها بمعاناة لتكمل ببراءة:

" راما بأه... عرفت من خالتى انها يتيمة ماعرفش ليه حسيت بأمومة غريبة من ناحيتها فقررت انى عمرى ماهسبها تعانى ابدا !"

لتنهي كلامها بضحكة تخفف من حدة اوجاعها :

"انت عارف انا عنيدة ازاى"

وسكتت.

ليسكت كل شيء معها.

شعر خلالها بأن حياته معلقة.

(فهل يمكن لساعات أن تُميت الإنسان هكذا!؟)

وهل كان مستقراَ ذات يوم؟!

*****

(21)

رحلت هالة وظلت بمفردها تشاهد ما أعدته.

لتتساءل: "انت فين!؟"

ثم نظرت إلى الساعة فوجدتها ال 5 عصرا.

"اتأخر اوى !" قالتها، لتجيب نفسها عليها ساخرة:

"دايما متاخر يانور اى الجديد !!؟"

نهضت لتستعد، فدخلت حمامها تستحم وتضع عطره الذي يفضله!

(فعندما تعشق الأنثى رجلا تعتنق عطره حتى تكون روحها جزء من جسده) !!

لبست فستان الزفاف فكم كان مثيراَ عليها!

فلطالما كانت جذابة في كل شيء!

كان يُظهر أنوثتها بشفافية وقفت أمام المرآة تتحسس جسدها، وأدارت ظهرها لكي تراه من الخلف.

فابتسمت بثقة، ثم اقتربت من المرآة أكثر لتضبط مساحيقها على وجهها بهدوء.

فكم كانت مختلفة حتى في مساحيق وجهها غير مُفضِّلة الشكل الصاخب الذي انتشرت عادته في ذلك الوقت"

تعيش كل شيء برقة متناهية تُظهر جمالها أكثر وأكثر ولهذا السبب اختارها دون الجميع او ربما اختارها لأنها تشبهها كثيرا !

انتهت من كل شيء.

حتى الطعام وضعته، واطفأت الإضاءة الأساسية وأشعلت إضاءتها الخافتة، وظلت تسند رأسها على أريكتها تنتظره، وتنظر إلى عقارب الساعة، وكلما تدق يخفق نبض أسير انتظار قاتم!

فتهمس : "اهدى يا نبضتي هيجى...."

*****

كما هو، صامت لا يدرك ما يقوله ولا من أين يأتي بكلام يصف به ما يشعر. كل شيء محبوس بداخله. فقط أخذ يتساءل:

"للدرجة دى بقينا لعبة فى ايد الأحساس ؟!!"

ابتسامة شاجنة ترتسم على وجهها الشاحب قائلة:

"تعرف انى كنت بستناك بالساعات علشان بس تكتب اى حاجه على التواصل الأجتماعى اقعد استنى صباحك على الفيس بوك وخواطرك وكتاباتك علشان بس اطمن واجى على بالليل اكتبلك كلمة واحده وامسحها تانى"

ضغطت بشدة على يدها من الأرتباك

ثم أكملت:

"كنت بتنفس كلماتك بإحساس قلبي.. بحس وقتها انت كويس ولا لأ"

"حتى في تعليقاتك على الناس !

ليقاطعها فجأة قائلا:

"قلبي يمضي وسط الأشواك"

لتكمل معه:

"وها أنا حائر أنتظر"

فاقترب ونظر إلى عينيها مباشرة:

"فأين الخلاص من كل ذلك!؟"

لتكمل: "وأين حبي من القدر!؟"

ليصمتا معا، وفي نفس ذات الوقت يتلاقا مع غروب الشمس مرة أخرى!

*****

(23)

تذكرتْ وهى جالسة فى زحام الأنين كل شيء كأن شريط حياتها ومعاناتها أعادتها رنين دقات ساعات الانتظار!

تذكرت طفولتها وأيمن وأبيها وأمها وياسر وكل شيء.

تذكرت أيمن حينما تحدثا عن الموت وقالت له وهي تحتضن يديه:

"هنروح للجنة مع بعض "

لينظر لها بسحر عينيه الخضراوتين:

"أنا هسبقك ليها الأول وهستناكى ، وأنتى مش هتجيلى غير لما تعلمى الدنيا كلها معنى الحب الحقيقى والتضحية!"

قالها لتصمت وقلبها ينقبض بهدوء.

قالها وظلت تتذكرها على مدار 6 سنوات !

فكم كان يشبهها إلى حد كبير حتى في عينيه!

" مش وقتها !" قالتها لتهمس مجددا.

"اهدى يانبضتى هيجى "

ولكن هناك شيء بداخلها يُشعرها بأن يومها هذا سيكون مختلفًا عن أي يوم في حياتها!

(فعجبًا للحياة! أحيانا نسترد لحظات طالما كانت مغيبة عن قلوبنا طويلًا، نستردها لكي نتذكر بأننا فقط عظماء!)

*****

(24)

انتبه بحلول الظلام، وحينها تذكر نور!

(فهل ننتبه للنور في عتمة ظلام الأشياء فقط!؟)

فقال:

"مضطر امشى تحبى اوصلك !؟"

فنظرت له طويلا تفتش عن شيء ما فى وجهه ثم قالت:

"احب اسمعك !"

(أشياء كثيرة نقولها بنظرات بسيطة؛ فالعيون لطالما كانت دائما مرآة لأرواحنا.. تفتضحنا بصمت لتؤلمنا بصمت من جديد)

(عدى وقت الكلام !) قالها وهو يمد يده إليها لتلمس مجددا يده بهدوء.. بحرقة.. بشوق هادئ تحتف به نيران عائقة لتصرخ وتقول (استنى)!

أدار ظهره لتتأمله كأنه قمر يرحل ليأخذ كل آمال ضي الحياة معه، فنظر لها فجأة وهو يتماشى بخطوات ثقيلة، ليجد دموعها تبتسم له!

"العيون الصافية فى الدنيا دى مش بدوم ابدا!" قالها

ليَكمل أنين قلبه:

"لنا الله!"

اختفى عن أنظارها، اختفى ليحاول أن يسترد ذاته، وخاصة عندما تأكد أن للقدر قدرة كبيرة على أن يُعيَشه الآلام بسمفونية الأحلام الساذجة!

ظل يفكرفى بداية هذا الفيلم الذى عاش به لساعات، ليرجع به الزمن لسنوات .. عرق يتناثر من جبهته.. ضربات تدق بقوة لتشرخ جدران صدره !

ظل كما هوالى ان خرج من الحياة الى الحياة !

وجلس على أول رصيف قابله كأنه ضائع ليس له مأوى من أي شيء.

بعد لحَظات همّ بالوقوف مجددا وهو متكئ على سيارة كانت تقابل الرصيف الذي كان جالسا عليه، نظر إلى مرآتها طويلا ثم قال :

" هه كبرتينى يادنيا !!؟"

ثم أكمل طريقه بهواجس تحتبس جدران عقله لتعميه تدريجيا وترجعه إلى جراح لم تشفَ بعد.

إلى أن وصل ويا ليته لم يصل!

*****

(25)

"رحمتك يارحيم !"

قالتها وهي تأخذ نفسًا عميقًا ناظرة للسماء!

فتحت حقيبتها وأخرجت هاتفها وأجندتها الصغيرة وقلمها، ثم نظرت إلى أجندتها طويلًا وتذكرت حينما كتب بها لأول مرة وفي أول صفحة كلمة واحدة:

"أحبك" وكأنه أحيها ليقتلها بها !

(فالكتابة حقا قدرة كبيرة على قتل الآخرين دون اشعار بالذنب فهى الشيء الدائم لجروحنا !)

أمسكت القلم وتجاوزت جميع الصفحات لتخرج فقط صفحة بيضاء تكتب عليها!

"حينما نمسك القلم لكي نكتب، نفضح أنفسنا ونتعرى ببطء متماهل لكي فقط نستريح على مقعد القوة ولو لدقائق، لنجد أنفسنا تعاني من جديد، ورغم ذلك

القلم وحده كفيل أن يَفهمك عن كل البشر.. القلم هو ذاتك، هو روحك، هو رابطة قلبك"

وبدأت...

*****

(26)

واقف يستند على الباب، يتصبب عرقا ويسند رأسه لكي تستريح من هذيانها قليلا. في ذلك الوقت كانت هي غافية على أريكة صالتها تنتظره.

فانتبهت على خبطاته وفتحت عينيها وذهبت لتنظر إلى العين السحرية الصغيرة للباب لتجده هو!

ـ "ياسر! يا ربي! قالتها بارتباك وذهبت تضبط نفسها أمام المرآة"

ثم فتحت الباب برفق.

ليجدها أمامه بفستان زفافها!!

وحينها تذكر!

فأخرج منديلًا من جيبه ومسح جبهته من العرق.

وهى تنظر له بشوق كبير، ولكن لم تسترح لمنظره هكذا وخاصةً عيناه !

تطلّع إلى جسدها وفستانها ونظراتها للحظات طويلة بعين شاغفة متحسرة نادمة، ليتشجع أخيرا قائلا:

"كل ده ليا انا ؟!" قالها وهو يلتفت إلى كل شيء.

إلى الورود تحت قدميه، والسفرة وتورتة عيد زواجهما، ولوحة الحائط الكبيرة التي بها صورته، وسلام مملكتها الصغيرة و(إليها)!

استند على الكرسي المقارب له ليجلس فجلست تحت قدميه وأخذت يده برفق وأنفاسها تتهافت بحنين "حبيبي"، لتخرج دموعه في ذات اللحظة لتسلم عليها، فأزاحتها بيدها الجميلة ورفعت وجهه من الأرض قائلة:

" نور عنيك ماينفعش يكون جواه الدموع دى "

فابتسم لها برفق.

فقالت بمرح:

"الله على أبتسامة حبيبى ! صدقني أنا مش عايزة اى حاجه غير انى اشوفك مرتاح"

فقال فجأة:

"تعالي جوة حضني!"

(أسوأ شيء في الحياة أن تُظلم لتَظلم مرة أخرى.. أن تتذوق من كؤوس المعاناة لتذيقها لغيرك لكي ترتاح، فتجد نفسك تعاني أكثر، وتستمر الدائرة تدور حولك إلى مالانهاية)

حضنته كأم تداوي آلام ابنها بنقاء قلبها.

كحبيبة تستوطن وطنها.

كزوجة مشردة تبحث عن آمالها!

لتشد يده فجأة وتقول مداعبة وهي بداخله:

"ممكن تيجى مع عروستك شوية صغيرة بس!؟"

فنهض وذهب معها وهو يتأمل السلالم والنجوم المعلقة بإضاءتها الساحرة، والى ان اقتربا من باب الغرفة التى يوجد بها اللوازم الإضافية غ، لتقترب منه ببطء قالت له بصوتها الدافئ:

"ممكن تغمض عينيك؟"

فستسلم دون مناقشة وأغمض عينيه، ليجد ما لم يصادفه عقله !

"اوضة رسم!!" قالها بفزع، ثم بكلمات متقطعة:

"نور... انتى ازاى كدا !!؟"

فوضعت يدها على شفتيه وقالت:

"ازاى دى مابتتقلش للبيحب بجد "

لتجيبها عيناه:

"حرام عليك !"

وبعد تنهيدة: "بحبك"

وكذب مرة ثالثة!!

*****

(27)

"كيف للقياك كل هذه النيران!؟

كيف تأتي كالطيف لتعطشني باشتياقي نحوك، وترحل مرة أخرى لتجعل قلبي يمتلئ بفوضى حنين لا ينتهى.

حنين يترنح به بعنفوان متماهل ليَسكنني انتظاراً ولوعة وحرمانًا.

فرحماك به!

رحماك به يا وطن اغتربتُ عنه بغبائي!

فكيف السبيل للقرب منك!؟ فنبضي يحتاج لضيق أنفاسك ليسع لروحه مجددًا أن تطير بين الأمال.

أيها الضي.. أيها الحلم بعيد المنال..

أفلا تشعر بي!!؟

أفلا تشعر بدقات تدق بلهيب نظراتك!!؟

أفلا تشعر بحنين تكابره لعبة القدر!!؟

أفلا تشعر ببعثرة أحرف تائهة بك!!؟

فيا لحسرة قلبي أن أراك أمامي بعدما كنت بجانبي! ويا لوجع

روحي حين تضحك الأيام على هزيمتي! ويا للوعة انتظارٍ يمزقني!"

كتبت كلماتها وأقفلت أجندتها لتسمع موسيقاها المفضلة Mariage D`amour وتهرب بها كعادتها مع صمت الظلام وأمواج المياه ورقصات النجوم حول القمر، وأغمضت عينيها الجميلتين ورحلت إلى عالمها!

لتنتبه بعد لحظات على يد تطبطب برفق على مرفقها لتنهض فجأة:

"أسامة!!"

- "امم الجميل هنا لوحده بيعمل إيه!؟ هو انتي مش خايفة القمر ييجي يخطفك ويجري لفوق تاني!؟"

ضحكت بشده وكأن انوثتها احتاجت للحظه ان تشعر بأنها مرغوب بها ولو بمجاملة ! ثم قالت بتمنٍ لم ينتبه له : "يا ريت!"

"انت إزاي جيت هنا!!؟"

فقال:

"ليا طرقي الخاصة لخطف الدكاترة ال زيك "

فضحكت مرة أخرى، إلى أن دمعت عيناها. ليفاجأها

"شفتيه صح؟"

تعجبت كثيرا من يقينه وسؤاله، لتتسع عيناها قائلة فى ذهول:

"عرفت إزاي!؟"

"إحساس"

قالها لتبتسم بشجن، ليبتسم هو معها ويبدأ (كليدرمان) بسمفونيته من جديد!

*****

(28)

عانى أسامة كثيرا في حياته إلى أن وصل إلى مكانة مرموقة يرضى بها عن نفسه، رغم ظروفه وانفصال والديه، وسفر أبيه لكندا، ومرض أمه بالزهايمر، وسفره معها إلى إنجلترا لتأخر حالتها الصحية بعد انفصالها مباشرة، وقتها تعرف عليها هناك (كطبيب قلب) أشرف على حالتها بل أنه كان السبب في أن تتعافى من كل شيء (سواه)!

همت يسر تداعبه كعادتها قائلة:

"ها.. الجنتل مان العظيم عمل إيه النهاردة؟"

فضحك على جملتها وقال:

"العادي زي ما انتي عارفة"

ليتذكر فجأة: "صح! النهاردة فيه حاجة غريبة حستها كدا لازم أحكيلك عليها"

فقالت باهتمام:

"اممم إيه اللي حصل احكي احكي"

فقال لها وهو يدعى الأستياء ويداعب فضولها :

" على قلبك ماحدش هيخطفنى منك وربنا نفسى اتخطف مرة "

لتضحك حتى اختفت عيناها تماما بأشراقه بسمتها وظل هو يتأملها فكم يحب هذه الضحكة البريئه التى لا تخرج الا قليلا وبالأخص معه فقط !

ثم تنحنح وقال :

ـ "فيه مريضة وقعت فجأة على حسب ما اتقالي.. فرحت أكشف عليها، ولما كشفت مش عارف ليه حسيت في عينيها حزن كبير رغم براءتهم"

"(عينيها الخضر) تحسي إنهم أمل في الحياة، وحزن غريب في نفس الوقت، وقلبها حسيت إنه ضعيف جدا رغم إن شكلها صغير مش كبير في السن.. مش عارف ليه حاسس إنها مش هتعيش كتير!"

تعجبت كثيرا منه وقالت :

"انت أول مرة تنجذب كده لحالة عندك.. غريبة!"

ـ "معرفش إزاي حسيت الإحساس ده من أول ما شفت عينيها! انتي عارفة إحنا كأطباء عاطفة الجسد ومراعاة احتياجاته مطلوبة، بس الإحساس والتعمق بدون حواجز بالإنسان نفسه ده شغلك انتي يا دكتور"

انتهى من كلماته، لتبتعد مرة أخرى عن كل شيء، وهذه المرة إلى ظلام الأمواج!

(29)

"بحبك"
قالها مجددا لتنغرس طعنة ملطخة بلعبة لا يقدر إحساسه على إنهائها.

نامت في أحضانه! فالتف برقبته نحوها ليجدها قد غفلت تماما كالأطفال ، فأشفق عليها وحملها برفق وذهب إلى غرفة نومهما، وبمجرد أن فتح الباب وضعها على سرير أبيض مثل نقاء قلبها والتفت إلى كل شيء ودموعه مازالت كالبحر الهائج

نظر إلى صورتهما وهو يقبلها، نظر إلى كل شيء وهو واقف في منتصف الغرفه، وزحمة أفكار تؤرقه لتُدخله في تحد مع معاناة إنسانة لا ذنب لها سوى عطاؤها! اقترب منها كأنه يريد امان هو فى حد ذاته ضائع !

اقترب إلى أن نام بجانبها ودفن رأسه في صدرها وهمهم ببكائه ببطء حتى لا تستيقظ.

(فجميعنا نختبئ في مكان أكثر حنانا عند الوجع، نختبئ خائفين من أنفسنا، من قسوتنا، من ماضينا الذي يهزم أرواحنا ومن مستقبلنا الذي لا نعلم هل سيرحمنا أم سيشقينا مجددا)

*****

(30)

هو ليه الحب بيموت مرتين !

قالتها وهي تنظر إلى مكانهما معا، وأسامة ينظر لها بشرود ويهمهم لنفسه بكلمات:

"بس لو تبصى فى عنيا وتعرفى قد اى بحبك "

ظل ينظر إلى الأرض ببؤس شديد، ولم ينطق بكلمة إلى أن أوصلها إلى منزلها، وحينها قال قبل أن يغادر: "مشاعر القلب ملك الرحمن". ليدير ظهره ويرحل!

(فدائما الأقدار هي من تقرر مصيرنا، والحب في تصادم معها، فقلب يحبك لا تحبه، وقلب تحبه لا يحبك، وقلب يعاني من قلب يحبه، وقلب يستغل كل من يحبه، وقلوب تتماسك فتنجح الأقدار لتفرقهم ليستسلموا لآلام الانتظارومن جديد ...)

*****

(31)

لم يستيقظ مبكرا كعادته، بقى نائما حتى الظهر، ففتحت عيونها برفق لتجده يحتضنها ، فتعجبت منه كثيرا؛ فدائما ما كانت تطلب منه ذلك والآن يفعله من تلقاء نفسه!

ظلت في مكانها لم تنتزع يديه، ووضعت يديها على يده وأغمضت عيونها مرة أخرى بهدوء.

(فكفيلة هي اليد أن تشعرك بحضن الأمان في جسدك بأكمله)!

استيقظ بعد ساعة حاول وقتها أن يسحب يده، ليجدها تأخذها مرة أخرى قائلة بصوت نعاسها:

" سيبنى اعيش لدقايق بس !؟"

فتنام مجددا ولكن ليس ككل مرة!

*****

(32)

لم تنم.. ظلت ساهرة في غرفتها جالسة على سريرها طوال الليل، تضع حاسوبها على قدميها وتتصفح صفحته على الفيسبوك، تتأمل شكله، عينيه، وجبهته، وشفتيه، وتحسس على حاسوبها على خديه.

"وحشتنى اوى !؟"

قالتها بوجع لا يُرى.

ثم أغلقت حاسوبها حينما شعرت بشروق الشمس، لتهم أن تعد كوب قهوتها الصباحية. نزلت من سريرها منهمكة، جسدها مرهق وعيناها يملؤها الأرق. دخلت إلى المطبخ بقميص نومها، وهمت أن تضع كنكة القهوة على النار وتقلبها، إلا أن تذكرت حوارها معه:

ـ "حبيبي عارف إيه أحلى حاجة في صباحي ده؟"

ـ "أنا طبعا"

ـ "امممم.. بعديك بأة"

ـ "آه يا قلبي! هو فيه حد بعدي!!؟"

ـ "بطّل بأة بتكلم بجد أنا"

ـ "طب ما أنا بتكلم بجد برضه.. مفيش حد أحلى من حبي بعدي.. أنا أناني بأة"

- "يا سلام!"

فضحك بشدة وقال:

"خلاص قولي قولي"

أكملت وهي ترتشفها بشغف:

"القهوة دي.. تحس إنها حياة.. بحس إنها أفضل صديق للإنسان بعد الورقة والقلم.. عارف وانت بتشربها تحس إنها بتسحب كل نقطة يأس من روحك علشان تبدلها فرحة "

- "تبدلها فرحة!!؟" قالها باستغراب.

أومأت برأسها وأكملت:

"رغم سوادها بس قادرة إنها تجيبلك السعادة والاسترخاء في ثواني، زي الشوكولا بالظبط"

ثم سكتت للحظات وقالت فجأة:

"إيه ده أنا عايزة شوكولا.. مش جبتلي ليه!؟"

ليضحك من عفويتها:

"بس كده!؟ من عيون قلب ياسر.. بس أنا عندي حاجة أحسن.. كليني أنا بدل الشوكولا"

- "بطّل بأة"

وفارت القهوة فجأة، كأنها هي الأخرى تمردت على ذكريات لا جدوى منها!

تركت كل شيء من يدها، وذهبت إلى غرفتها لتنظر من نافذتها على شروق الشمس لتقول كعادتها:

"صباح الخير يا حلمي التعبنى !"

*****

(33)

أجسادهما تتلاصق وأيديهما تنبض معا، ثم لاحظ رعشة يدها القوية فنهض من مكانه وأدار وجهها إليه ومسك يدها وقال بقلق:

"انتى بترتعشى كدا ليه !؟"

فابتسمت له ببراءة صافية وقالت:

"كمل جملتك وقلى "يا حبيبتي!""

ليرتعش جسدها أكثر، وتحاول ان تخرج الحروف رغم اصطدام شفتيها بشعورها للبرد :

"ممكن تجبها معاك حابة اشوفها؟؟"

فنقبض قلبه ولم يستطع أن يرد عليها أو يسألها.

لاحظت ذهوله واصفرار وجهه، فابتسمت بطمأنينة تامة تبوح من خلالها:

"ماتستغربش ..فاكر لما قلتلك "قلبك ده انا الوحيدة ال بحس بيه "؟ خليها تيجى معاك انا عايزة اتكلم معاها من بعد اذنك "

انتهت من جملتها هذه، وأغلقت عينيها واضعة يده على قلبها!

فشعر حينها أنه مجرد أمامها من كل شيء، واحتقر نفسه إلى أبعد مدى.. حتى الحب احتقره في ذات اللحظة!

حاول أن يتمالك نفسه، وقال بصوت منقطع تحاول ان تجتازة سمفونيه صدمته :

"نور أنا... أنا..."

فلم تجب عليه وجسدها ظل ساكنا !

فانتفض من سريره محاولا أن يجعلها تفيق ولكن بلا فائدة. وضع رأسها على صدره وهويقول:

"قومى ابوس ايدك ماتعمليش فيا كدا!!"

(وليبدأ تحقيق الأوان بعد فوات الأوان)!

*****

(34)

"غريبة!"
قالتها حينما نظرت إلى هاتفها ورأت رقمه؛ فغالبا لا يتصل بها في مثل هذا الوقت.

ردت عليه:

"ألو"

"صباح الطمأنينة على قلبك"

سمعت هذه الجملة لتهدأ تماما وتبتسم بارتياح رغما عن كل شيء؛ فله قدرة كبيرة على زرع الآمال بداخلها رغم ما تعانيه بصمت.

ـ"إيه الصباح الجميل ده بس!؟"

ضحك وهو يقول:

"يلا أي خدمة"

ـ "مش عوايدك يعني" قالتها باستغراب وضحكة مفتعلة.

فقال بلباقة تنجذب دائما لها:

"دلوقتى بس هتتعودى على ال انتى مش متوعدة عليه قبل كدا !"

قرر أن لا ييأس مهما حدث، رغم أنه يعلم أن هناك الكثير لكي يحاربه، ولم يجد سوى ان يصبر نفسه قائلا :

"هتحارب عشان حبك هتحارب عشان الحب ده مش بنلاقيه غير مرة واحده فى العمر !"

سكتت تماما.

فأكمل بلجلجة:

"ها.. دكتورتنا الجميلة هتعدي على ماما امتى؟"

"في أي وقت.. اللي تحبه"

فقال لها: "الساعة 9 كويس إيه رأيك؟"

لتقول مداعبة:

"تمام تحت أمرك يا فندم!"

وأقفلت معه وهي تسأل نفسها سؤالًا واحدًا فقط:

"ليه !؟؟"

*****

(35)

ذرفت دموعه على خدها كأنها تطلب منها الرجاء أن تفتح عينيها لتشرق حياته من جديد. لم يدرك ما يفعله سوى أنه اتصل بالمشفى ناظرا لها من بعيد بفستان زفافها!

(ففي حياتنا لا ندرك قيمة الأشياء إلا عند فقدانها)

ظل جالسا على الأرض كالأطفال خلف سريرها النائمة عليه، يضم رجليه ويبكي بشدة، وشريطٌ يسترده دون وعي!

تذكر حينما رآها.

تذكر كل لحظة اصطنع فيها بمشاعره معها.

تذكر كم مرة كذب على نفسه وعليها !

وصرخ بانهيار:

"يا رب!!"

*****

(36)

فتحت صفحته مجددا.. أخذت تتفحص كلماته.. وقفت على شيء قد كتبه منذ 3 أيام!

لتقرأ بصوت هادئ:

"ضائع بين حروفه

غارق تحت سلالة النسيان

فأين نجاته من كل ذلك!؟

وأين أحلامه من عواصف الأيام!؟

واين تنام الأجفان !؟

فهل الحب في زماننا صعب اغتياله إلى هذا الحد!؟

وهل الأماني البريئة ساذجة إلى حد القهر!؟

فأوه على أوجاع تتباطأ لتتوغل بنا على نيران هادئة

وآه على زمان عشنا به غلطة يحاسب عليها قلوبنا!

وآه على أيام مخبأة نخاف الاقتراب منها!

وآهِ على أنفسنا التي نراها أمامنا تعاني بصمت فنداويها ببسمة تصبَرها من جديد!"

انتهت من قراءة كلامه ومازالت تدوركالضائعه فى فلكة الساكن وخواطر بداخلها لا تهدأ

" ليه ماتكلمش "

" طب كان يقول اى حاجه ، كنت محتاجه بس يقولى حاسس بيك "

لتكتم مابداخلها وتحتضن نفسها بكلمة واحدة:

"رحمتك!"

*****

(37)

جاءت سيارة الإسعاف وأخذوها، وهو يتنسد في كل ركن لكي يستطيع فقط أن يلحق بها (ولكن لطالما كان متأخرا في كل شيء افيأتى الغياب لكى يتقدم خطوة !).

أدخلوها إلى السيارة وهو عاجز أن يدخل معها.

ركب سيارته ومعه سائقه ليبادروا بالذهاب خلف سيارة الإسعاف.

وضع رأسه على نافذة سيارته يتأمل الأرض وسرعتها، وضجيج يملأه، وذهول من كل شيء يحيط به.

(يومان فقط يكفيان لأن يغيرا حياة شخص إلى أسوأ ما يكون!!)

وسرعان ما وصلت إلى المشفى، كانت قريبة من منزله إلى حد كبير. لم يستطع وقتها أن ينزل، شعر في هذه اللحظة أن قدميه تخذلانه هما الأخرتين ولا تحملانه على النهوض، فأرسل سواقه معها!

ظل جالسا وكأن كل شيء ينغلق حتى ضي حياته الضئيل!

أخرج هاتفه وأخذ يتأمل صورها.. لأول مرة ينظر إليها حقا!

(فلماذا إذن ننظر إلى الأشياء عند رحيلها عنا!؟ ولماذا نبكي بعدما انتهى كل شيء!؟ فماذا يفيد البكاء وقيمة دموعنا لا تسترد أي شيء سوى الندم!؟)

*****

(38)

تحتضنها رحمة الله، لا تتحرك، لا تتكلم، قلبها يستغيث فقط.

ثم انتبهت فجأة على صوت هاتفها يرن مرة أخرى.

"ياربي أسامة!"

قالتها وهي تنظر إلى ساعتها لتجدها التاسعة!!

(فكم يمضي الوقت سريعا حين ندفن أنفسنا في ماضينا ولو للحظة)!!

دخلت حمامها لتغسل وجهها. وقفت أمام المرآة فترة طويلة تتحسس وجهها، تتأمل نفسها، تنظر إلى عينيها بشدة لتلاحظ أن حتى هي لم تسلم في إخفاء خبايا أحزانها!

غسلت وجهها وسرّحت شعرها المتدفق حول رقبتها لترفعه لأعلى، ثم توضأت!

لطالما كانت تحب أن تتوضأ قبل أن تخرج من منزلها لتشعر انها مع الله حتى في خطوات قدميها!

اخرجت ثيابها، فوجدت نفسها تختار فستانا رماديا في أزرق مرسوم عليه ورود صغيرة، كانت من 4 سنوات متيمة به ولم تلبسه بعد "جيه وقتك!" قالتها لتهوّن عليها أحزان هذا الصباح!

تجملت برقة بمساحيقها (فدائما ما تكون المرأة راقية في كل شيء حتى في أحزانها)!

اتصلت به.

- "ألو صباح الخير مرة تانية"

فرد عليها بصوته الشاجن الهادئ:

"صباح راحة القلب والجمال.. أنا اتصلت من شوية وانتي ماردتيش، فأنا قلت بأة أفضل مكاني مستني تحت البيت وأعمل زي شحات الغرام كدا"

فضحكت الى ان هدأت ضحكاتها المتعالية ليصمت للحظة ثم يقول:

"دامت ضحكة حياتي يارب !"

توترت فجأة وشعرت بسرعة دقات قلبها، فاستطاعت أن تتمالك نفسها فقالت بنبرة صوت تميل للصارمة:

"انت تحت صح؟"

- "آه تحت يلا انزلي" قالها بعفوية كمن ينتظر أحلامه أن تأتي إليه.

فهي بالفعل كانت كل أحلامه.

أخذ يتأملها بهدوء. عينيها، شعرها، براءة وجهها، سحر ابتسامتها.وخطواتها الرنانة وكأنها تهاتف عصافير الكون لتلتفت حولها !

"طب ليه !؟" قالها قلبه عاتبا على القدر!

(فدائما أدوات الاستفهام لها القدرة على اختراق أشياء نحن أنفسنا لا نفهمها)

*****

استمع لأصوات بجانبه، فالتفت برقبتيه لينظر، فوجد زوجين مسنين قرب سيارته يحتضن بعضهما البعض ليقول الرجل الكبير المسن لزوجته:

"قلقتينى الله يسامح قلبك "

ـ "أنا معاك أهو يا حبيبي ماتقلقش.. هو دور برد في صدري كده وراح خلاص"

قالت هذه الجملة ليتأمل روعة الإخلاص؛ فكم كان يتمنى أن يعيش هذه اللحظة!

ولكن شعر حينها بأن هناك حكمة قوية من سماعه لهذا الكلام، والحكمة بها (هي) إخلاصها له وصبرها عليه. وما صدمه أكثر

هو شعورها الدائم بأن هناك حاجز بينهما، وأخيرا اعترفت بهذا في لحظة إغمائها (ما اغباه) !

خبط رأسه من كثرة هذه الأفكار والهواجس على الكرسي الأمامي من مقعده وصرخ

"ليه بس ليه!!؟ غبي! ندل!"

ليفتح باب سيارته فجأة ذاهبا إلى الاستعلامات ليستعلم عن غرفتها، يمشي إلى مسار طويل فيه غرف عديدة إلى أن وصل ووقف أمام الباب وهو ممسك مقبضه فتمالك نفسه بشجاعة وفتحه ليجدها تبتسم له ببراءة كأنها تتنظره ان يأتى !

كانت هالة فى ذات اللحظه جالسة بجانبها ممسكة بيدها بدفء

وسائقه جالس على الأريكة المقابلة لسريرها!

فرمقته هالة بنظرة قاسية، ثم نفخت وازاحت وجهها عنه.

تجاهلها كعادته واقترب من نور بخطوات تتحشرج بخوف يبالى به أشار وقتها بيده لسائقه لكي يرحل.

كان السرير في منتصف الغرفة، غرفة كبيرة وبها نوافذ عالية مفتوحة وستائرها بيضاء كلون روحها، فيكفي اعترافه بأن الأبيض لها دائما!

اقترب بجانبها في الجهة الأخرى خلافا لجهة هالة!

ليجد أزهار القرنفل بجانبها.

فهمّ بصمت أن يخرجها من غرفتها، فقالت بصوت منخفض:

"سبها انا بتنفس بيها " ليجد الطبيب وراءه قد دخل فجأة قائلا:

" بعد إذنك يا آنسة.. عايزاتكلم مع حضرتك شوية "

فنظرت له هالة بقبضة قلب:

"خير يادكتور!؟"

أومأ برأسه ليطمئنها:

" مافيش حاجه تستدعي القلق.. هستناكى فى مكتبى "

*****

(39)

رآها وهي تنزل من عمارتها آتية إليه!

"سبحانك يا رب الجمال !!"

قالها لنفسه فلأول مرة يراها هكذا متحررة من اى رسميات بمنتهى البساطه والرقة !

كان فستانها منفوش نفشة بسيطة تدل على جاذبيتها وحذاؤها بسيط على الأرض بعكس ماترتدى !

أما شعرها، فكان مرفوعًا بطوق صغير على شكل فراشة، فدائما تحب الفراشات وأشكالها وتواجدها في كل شيء يخصها.

اقتربت منه و قالت :

"ماتستغربش والله أنا بنوتة برده"

فقال بلمعة عينيه:

"هو انتِ جميلة أووي في كل حالاتك كدا إزاي!؟"

انكسفت كثيرا ونظرت إلى الأرض، وتذكرت فجأة ياسر؛ فقد كان يقول لها هذه الجملة!

ثم قالت فجأة متفادية اى شجن :

"انت لاطعني بقالك 3 ساعات.. ينفع كده!؟ أديني أهه اتأخرنا على ماما"

فضحك بشدة وقال:

"أنا برده!؟ طيب أنا هسكت بس علشان خاطر اللي شايفه ده"

وصمتت بهدوء لتستقبل ذاكرتها كل شيء من جديد!

*****

(40)

ترددت هاله في الذهاب خوفا عليها منه أو خوفا مما قد يؤكد توجسها من ان حالة صديقتها ستسوء عن ذالك، فنظرت إليه طويلا وقالت بحدة تميل للغضب:

"أتمنى أما أرجع مالقيش حاجه تحرق دمي أكتر"

فلم ينظر لها من الأساس، كان ينظر طيلة الوقت لهذا الملاك، فمجرد أن ذهبت ركع على ركبتيه أمام سريرها وأخذ يدها بين أحضانه وأخذ يقبلها بعنفوان ودموعه تسقط علي يدها لتنبض مرة أخرى. كان يشعر بداخله أن هناك شيء ما سيحدث سيحطمه!

ومع كل قبلة ودمعة تسقط، تستكن هي لتبتسم برضا وكأنها تراعها الملائكة ! .

فيراها تبتسم ليزداد قهرا وألما لحد الحسرة والتمزق.

"حبيبي!"

قالتها بحنان، فوضع يده على شفتيها قائلا:

"ماتقوليش أي حاجة ممكن غير إنك هترجعيلي تاني"

"ماتقوليش غير إنك سامحتيني على كل دمعة نزلت من عينيكي بسبب بعد قلبي.. أنا...

فقاطعته لتقول:

"بحبك"

فصمت ليزداد وجع القلب لأبعد مدى

فأكملت:

"الحب هو الوفاء، وانت بس اللي علمتني ده بعد 6 سنين! وفي كل السنين اللي عشناها ماعاتبتكش وماطلبتش منك أي حاجة علشان حبيتك. حتى تجاهل قلبك مافكرتش فيه ولو للحظة.. مافكرتش حتى ليه اتجوزتني وانت هتخليني أعاني بالشكل ده.. عارف ليه؟ علشان احتياجي ليك يا ياسر كان أكبر بكتير أووي من أسئلة تافهة بتوجع القلب وبس.. احتياجي إني أكون جمبك حتى ولو ماقدرتش إني أكون... احتياج قلبى انه بس يطمنك يقولك (انا امانك) !

فقاطعها:

"حبيبتـ..

لتستوقفه قائلة قبل إكمالها ودموعها تنحبس في غرفات عيونها:

"حتى الكلمة دي اتحملت اصطناعك فيها.. وقلت لنفسي كفاية إن نبرة صوتك بتخرجها ليا حتى ولو كانت..." ولم تكمل!

أخذت انفاسها بصعوبة وحاولت أن تتكلم مجددا فحاول أن يمنعها فلم ترد عليه وقالت:

"حبي ليك خارج عن أي حسابات حتى حسابك لنفسك وضميرك من ناحيتي لو فى غلطه فى ال بنا فهى غلطة النصيب ولا قلبى ولا قلبك ! "

لتلمع عيونها مجددا "حبيبي"

*****

(41)

أثناء طريقهما أخذ أسطوانة لـ paul mauriat

لتشتغل موسيقاه الساحرة Isadora

فقالت باستغراب:

"هو انت بتسمع النوع ده من الموسيقى!؟"

فأجابها بعد نظرة طويلة:

"اتعلمت منك"

حاولت أن تتعامل ببساطة دون أهمية لما يقول :

"فاضل أد إيه ونوصل؟"

ليتجاهل سؤالها:

"ممكن تسمعى وتسيبى روحك و الوقت ليا ؟!)"

لتقول بحسرة :

" وهيا فين روحى "

*****

"نور حبيبتي!" قالها كيانه بصدق ولأول مرة!

توغلت إلى أعماقها بطمأنينة، فأغمضت عينيها بابتسامة توحي بالسلام قائلة:

"دلوقتى بس ياحبيبي.. ا!"

ليقبلها وكأن قبلته جمعت كل المشاعر التى كانت ترغبها لسنوات ، فشعر ببرودة شفتيها، فانتفض جسده بفزع:

"نور! نور حبيبتي!"

لمس جسدها ليجده صامتًا هو الآخر.

فعجز عقله عن الاستيعاب، فرحل بهدوء معها دون أن يخبره!

(43)

قاطع هاتفه لحظة انفراد مع روحها للحظات ليرد:

"ألو"

ـ "دكتور.. فيه حالة خطيرة لازم حضرتك تيجى تشوفها !"

ـ "تمام" قالها في ضجر.

(فدائما لحظاتنا الجميلة تقاطعها مآسي الحياة)

فقال ليسر:

"زي ما سمعتي فيه حالة خطيرة ولازم أغير طريقي للمستشفى دلوقتي.. تحبي أوصلك عند ماما ولا تيجي معايا ونروح مع بعض؟"

قال هذه الجملة وكل دقة في قلبه تتمنى أن تأتي معه.

ففراقها أصبح شيئًا لا يحتمل بالنسبة له.

فابتسمت لامبالية ليجدها تقول:

"مش مهم هكمل معاك"

"الحمد لله"

قالها بأمتنان ليكمل طريق ليس بعده طريق !

*****

(44)

كانت تجلس مع الطبيب برهبة فقال لها:

" أنسة هاله ..

بمجرد أن تحدث قالت بكلمات متقطعة:

"قولّي بس إنها هتعيش.. قولّي إنها بخير الله يخليك!"

فهدّأ من روعها ونهض من مكتبه وجلس على المقعد الذي أمامها قائلا:

" اهدي.. كل حاجة بخير صدقيني بس كل الحكاية إن قلبها ضعيف جدا وأنا عملت اللي أقدر عليه.. علشان كدا بستأذنك إن فيه دكتور غيري هيكمل متابعته معاها وده علشان خاطر إنه متمكن عني وعنده خبرة أكتر "

فهدأت قليلا لتلتقط أنفاسها.

"تمام تمام أنا موافقة"

- "وزوجها؟ على حسب علمي إنها متزوجة...

فقاطعته بعصبية وقالت:

- "مادام كل حاجة لمصلحتها مفيش مانع.... أستأذنك أروح أشوفها"

خرجت من عنده وهى متيقنة بأن مثل هذه الملائكية لن تبقى كثيرا في أرض يملؤها الدنو والآلام.

وصلت إلى باب غرفتها فجلست على مقعد للحظات تهدأ من روعها قائلة " هتبقى بخير ياهاله ،،هتبقى بخير "

ثم تذكرت وجود ياسر معها، فنهضت فجأة لتدخل!

*****

(45)

"هنزل بلبسي ده!؟ لا لا هستناك هنا أحسن"

- "يلا يايسر مفيش وقت" قالها بشدة لتضطر أن تنزل. دخلا إلى المشفى لكي يصعد إلى غرفة الأطباء وهي معه، فارتدى معطفه وقال:

"هشوف الحالة ومش هتأخر استنيني.. آه صح وعلى فكرة طلبت قهوتك"

فابتسمت له ممتنة، ليرحل !

*****

(46)

"لا لا لا لا يارب يارب!"

قالتها وهي مسرعة إليها تحاول أن توقظها دون جدوى.

رأته على قلبها، فحاولت أن تحرك فيه دون أي فائدة.

ذهبت خارجًا تصرخ لتجد أي منفذ أمل.

ذهبت إلى غرفة الأطباء، ففتحتها لتجد آنسة صغيرة تشرب قهوتها تنظر لها بدهشة فقالت بانهيار تام:

"مفيش دكاترة في أم المستشفى دي!؟"

تركت الباب خلفها وأخذت تهرول خارجًا، فخرجت وراءها الفتاة لتهدئ من روعها.

إلى أن عادت مرة أخرى لتجد أطباء ملؤوا المكان. هي واقفة أمام الغرفة ووراءها الفتاة!

دخل أسامة إلى الغرفة التي بها الحالة الخطيرة التي اتصلوا به لأجلها، ليجد يسر واقفة في ذهول، فنظر لها باستغراب متعجبا وقوفها هكذا، والتفت في ذات الوقت إلى الداخل ليجدها هي.

إنها هي!

نفس الفتاة!

شعر بدوار يحيط به.

فأسرع لكي يدخل، ليجد زملاءه يحاولون إنقاذها دون نتيجة، فشك في البداية أن تكون هي.

فاقترب منها بجهاز الصدمة الكهربائية لاسترداد نبضاتها من جديد، ولكن دون فائدة.

ففتح عينيها ليجدها هي بالفعل، ذات العينين الخضروتين اللتين جذبتاه لأول مرة، وذات الوجه الملائكي. نظر لهذا الرجل بجانبها، فقد نقله زملاؤه إلى الأريكة المقابلة، ليجده في غيبوبه تامة!

فاستدعى الممرضين لنقله إلى العناية المركزة، وحملاه وأخذاه.

كل ذلك في لحظة!

نظرت (هالة) له بانهيار، وهرولت على صديقتها وضمتها إلى صدرها قائلة:

"اصحي حبيبتي علشان خاطري علشان خاطري أنا"

فغطوا وجهها، فأزالت الغطاء عن وجهها وقالت بصراخ:

"هي صاحية!! إيه اللي انتم بتعملوه ده انتوا اتجننتوا!؟ ابعدوا عنها!!"

ثم ضحكت بصورة هيستريا وكأنها اصيبت (بالهيبومانيا) للحظات!

فأعطوها حقنة مهدئة ونقلوها لكي تستريح بعيدا عن هذا الوضع.

كل ذلك أمام عينيها.

تشعر بأنها تشاهد فيلمًا سينتهي قريبا. صراخ نبضة، آلام وموت وافتقاد!

(حينما تتراكم علينا الصدمات فقط لا نستطيع أن نفعل أي شيء سوى أن نقف أمامها في ذهول!)

أدارت ظهرها ورجعت إلى غرفة الأطباء بخطوات شاردة جلست فقط حتى لا تقع هي الأخرى!

فدائمًا كانت قوية حتى أمام الموت.

ورغم كل ما شاهدته، شعرت بعدم تصديق اى شىء ولكن منذ متى صدقت اى شىء فى رحلة الحياة ؟!

أوقات تتأمل وأوقات تتذكر وأوقات تضحك بشدة، فدخل عليها أسامة ليجدها بهذا الشكل، واحتضنها لأول مرة!!

استسلمت له تماما، وكأن نبضتها عثرت على طوق نجاة التي تأخذ ضلوعها لتحتويها

"اهدي"

قالها ولم تنظر له ولم تتكلم، فقط ساكنة .

فكم كانت تحتاج طيلة حياتها لضمة، فقط ضمة تقول لها "أنا بجانبك"!

بعد لحظات أخذها من يدها وأجلسها. حاول من خلالها ان يبذل اقصى مافي وسعه ليهدّأ من روعها رغم أنه هو الآخر كان لا يستوعب أي شيء، وما الحكمة في أن يرى هذه الفتاة مرة أخرى؟ والأغرب من كل ذلك صدق إحساسه مع أنه رآها مرة واحدة فقط!

(فهل نستطيع حقا أن نحكم على الآخرين باجتياز إحساسنا؟)

أخرج هاتفه من مكتبه واتصل بزميله دكتور علي وقال له:

"أنا في أوضتنا ممكن بس بعد إذنك تيجي ثواني؟"

فقلق علي بشدة وقال:

"أسامة فيه إيه انت كويس؟؟"

ليصمت أسامة ولم يرد عليه، ففهم بهدوء، ثم قال:

"ثواني وهكون عندك"

لم تمض ثوان بالفعل ودخل علي ورحب بهما بابتسامة، ولم يتجرأ حتى أن يمد يده بسبب منظرهما وشحوب وجهيهما.

نهض أسامة وقال:

"معلش هتعبك.. ممكن تخليك مع دكتورة يسر تكشف عليها وأنا هاغسل بس وشي وراجع"

وبالفعل ذهب ليغسل وجهه وبدّل ملابسه وأخذ كل البيانات عن هذه الحالة.

كان لديه فضول كبير ليعرف من هذه وهل متزوجة أم ماذا ومن هذا الشخص.

فوجده هو!!

(ياسر عبد السلام)

معقولة!

كانت يسر قد قصت له عنه، فهي في الأساس لا تتكلم إلا عنه!

ذهب إلى غرفة العناية المركزة، وبعد فحص تام وجد أنه قد أصابته غيبوبة كاملة وبسببها من الممكن أن يفقد الذاكرة!

تخبطت به الدنيا كصاعقة بأن ذلك الشخص الذي ينافسه في أول حب في حياته ها هنا يرقد بجانبه!

ورغم أنها فرصة للتقربَ منها بالفعل، إلا أنها أكبر عقبة؛ لأنه كان يعرفها جيدا! لم يدرِ ماذا يفعل ولا ماذا يقول. شعر أنه يجب أن يذهب لكي يتنفس فقط بعيدا عن هذا الضجيج الذي أحاطه.

فذهب إلى غرفة الأطباء مرة أخرى.

ودخل ومعه ابتسامة مصطنعه تتلون على شفتيه ووجّه كلامه مباشرة لعلي:

"ها إيه الأخبار؟؟"

- "زي الفل يابني ماتقلقش" قالها علي ليطمئن تماما أنها بخير.

فقال ليسر وهو ناظر بمحاذاة قدميه:

"يلا هوصلك علشان ترتاحي"

لم تنظر له ولم تجب عليه، فقط كان الصمت يملئ وجدانها

حاول أن يقوي نفسه أمامها فقال بعقلانية تامة:

"قعادك هنا مش هيقدِّم ولا هيأخر صدقيني.. يلا أوصلك علشان ترتاحي"

- "أسامة هو هو اللي حصل ده ده قدامي انا، طب إزاى ؟!!"

مسك يدها وقال بحنان :

- "يسر.. علشان خاطر ربنا لازم تستريحي، وخالتك قلقانة عليكي.. استريحي بس"

- "ليترك العنان مرة اخرى لأحتضانها "

أنهضها بهدوء وأسند يدها على يديه إلى أن وصلا إلى باب سيارته. فتح الباب ليدخلها وهي ناظرة إلى نافذة مقعدها مستسلمة تماما.

فلأول مرة تقول لآلامها "مرحبا هل من الممكن أن تأخذيني إلى اليأس بلا رجعة!؟"

ونامت!!

*****

(47)

لم تمض لحظات ووصلا إلى البيت سريعا، ففتح باب سيارته وحملها!

كانت في هذه اللحظة مغيبة

دق على باب شقتها لتفزع خالتها من منظرها هكذا، فهدّأها وقال لها:

"ماتقلقيش عليها ياطنط.. إرهاق وقلة نوم وكتر القهوة اللي بتشربها دي ما انتي عارفاها أكتر مني"

حاولت خالتها أن تطمئن رغم خوفها الشديد، فحملها إلى غرفة نومها ناظرا لها بابتسامة قائلة:

"هو دوری قرب ينتهى ياترى !؟"

أصرت عليه أن يشرب شيئًا ولكنه امتنع بلباقة.

أخذ سيارته ولم يذهب إلى بيته حين ذلك بل ذهب إلى دار الأيتام!

كان أكثر يتما من ان تحتضنه حوائط غرفته !!

(فهل اوهامنا تشعرنا باليتم إلى هذه الدرجة المبرحة!) ذهب ليرى رانيا ورحمة وعصام، أولاده الثلاثة كما يسمي دائما؛ فعندما

جاء للمرة الأولى منذ سنه لهذا المكان انجذب لهؤلاء الثلاثة وأخذ يلعب معهم ويداعبهم بشدة إلى أن جعلوه يأتي خصيصا لهم. كانوا صغاراً كثيرا ما يقرب من 5 سنوات، وكانوا في عمر واحد.

مجرد أن دخل هموا عليه يحتضنوه من ركبتيه.

ـ "بابا بابا!"

فانخفض لهم وضمهم بعمق "آه"

ابتسمت رحمة له وهي تقول:

"كده يا بابا تتأخر عليا!؟ مش أنا أميرتك الصغيرة؟ ليه تسيبني وتتأخر عليا كده!؟"

فقاطعتها رانيا وقالت:

"لا أنا اللي أميرتك يا بابا مش هي.. فين الشكولاتة بتاعتي بأة؟"

فقال عصام:

"وأنا عايز الأتاري بتاعي"

فابتسم بشجن قائلا بين أنفاسه:

"ياريت الحياة تكون ببساطة قلوبكم!"

"حاضر هجيبلكو اللي عايزينه كله.. امممم إيه رأيكو أفسحكو النهاردة؟"

قالها بحماس أفرحهم كثيرا؛ كانت أول مرة يأخذهم خارج الدار رغم أن الوقت كان متأخرا.

"إيه ده بجد!؟" قالوها بنبرة صوت موحدة يملئها الفرح وأخذوا يقفزون في أماكنهم بسعادة هائلة.

فقالت رحمة: "بس أنا اللي هركب في الكرسي اللي جمبك"

فضحك قائلا: "بس كده!؟ أنا تحت أمر أميرتي.. يلا روحوا البسوا عقبال ما أتكلم شوية مع ميس نادية.

ذهب إلى مديرة الدار، ورحبت به كثيرا رغم أن الوقت كان متأخرا، وتفاجأت بطلبه في اصطحابهم في هذه الساعة.

فقالت بحزم:

"دكتور أسامة الساعة 6 المغرب، وإحنا بنمنع الزيارات المتأخرة، بس استثناء لحضرتك طبعا وده بسبب ثقتنا في احترامك "
فابتسم ابتسامة يطمئنها بها وقال:

"اطمئنى حضرتك ساعه واحدة بس ومش هيتأخروا وده يكون من كرم اخلاقك "

أخجلها بلباقته، فلم تملك أن ترفض وقالت له:

"اتمنى انهم مايتأخروش"

وبمجرد أن خرج من غرفتها وجد الملائكة الصغار ينتظرونه

ـ "إيه ده انتم خلصتو بسرعة كده إزاي!!؟"

فرد عليه عصام ببراءة: "أيوة أنا سوبر مان"

فقاطعته رحمه ورانيا: "وإحنا سوبر وومن"

فضحك بشدة لم يتحملها وقال:

"طب يلا يا خارقين انتو قبل ما نتعلق"

(فكم يلهينا النقاء عن كل شيء حتى عن أنفسنا!)

أخذ رحمة على ذراعيه وقال لها:

"أميرتي الصغيرة"

فانكسفت برقة وقالت:

"لا أنا دلوقتي ملكة علشان بابا شايلني"

"مافيش اجمل من رحمتك في الحياة!"

قالها بين أنفاسه ثم التفت إلى رانيا وعصام، فوجد أنهما ينظران له في سأم.

استشعر غيرتهما فابتسم قائلا: "انتو طوال وهي قصيرة، فعلشان كدا شلتها.. مش معنى كده إني بحبها أكتر منكم.. لأ أنا بحبكم أوي انتو كمان بس علشان ماتتكعبلش وتقع"

"انتوا الاتنين امسكوا إيدين بعض كويس وتعالو جمبي كدا"

فنظروا لبعضهما وابتسما. ولم يأخذهم في سيارته بل أخذوا يمشون في الشارع ليصلوا إلى الحديقة القريبة من مسكنهم!

رغم الظلام الحالك على الحديقة إلا أنها كانت تضيء بهم.. اشترى لهم من هناك بالونات كثيرة أخذوا يلعبون بها ويتمرجحون وهو يمسكهم حتى لا يسقطون، ما عدا رحمة كانت تخاف أن تركب الأرجوحة حتى ولو أحد أمسكها.. أكتفت بلعب البالونات وفجأة جعلتها تطير من فوقها وهي واقفة في مكانها تقفز وتضحك وتنظر لها بسعادة هائلة.

(فللأشياء الصغيرة حريتها حتى وإن امتلكناها)

التفت إليها، فقد كانت تأسره بشكل خاص لأن رغم طفولتها وبراءتها إلا أنها تنظر للأشياء باختلاف رغم أنها صغيرة صغيرة كثيرا، ولذلك كان دائما يخاف عليها من الحياة!

فقال لها بصوت مرتفع:

"ليه سبتي البلالين تطير كدا لفوق!؟"

فقالت له وهي تصفق وتقفز وتضحك:

"رايحين للملايكة علشان أنا دعيت وقولتلهم يقولوا لربنا يسمع كلامي فربنا سمع كلامي، فأنا قلت أفرحهم معايا.. هيييه بص يا بابا حلوين إزاي هيفرحوا بيهم صح؟"

نظر لها وعيناه دامعتان، تحاول دموعه أن لا تخرج من أجفانه فابتسم وقال:

"صح"

نظر إلى ساعته ليجدها السابعة إلا عشر دقائق.

فقال لهم: "يلا علشان ميس نادية ماتزعلش، والمرة الجاية بأة ليكو عندي مفاجأة"

فهموا أن يبكوا فقبلهم بدفء وقال:

"علشان بابا يمشي مبسوط، وعلشان بكرة فيه حضانة"

فابتسموا وصمتوا، وأخذهم ليرجعهم مرة أخرى إلى الدار.

*****

"حبيبتي!"

قالتها ودموعها تنسكب على وسادتها.

"أنا كنت عارفة إنك مش هتعيشي كتير في الحياة.. علشان قلبك ده قلب ملايكة"

"آه يا نور!"

ضمت ركبتها على صدرها، وضمت جسدها كله بيدها، وتنهدت بعمق:

"نور.. خالد.. نور"

فرفعت رأسها لتجد السماء تمطر، فهل تشعر السماء بوجعها إلى هذا الحد فتبكي لأجلها!؟

ابتسمت للأمطار لتنام فقط.

*****

وجدت أنها في منزلها! هل كانت تحلم بالفعل!!؟

فتحت عيونها وابتسمت وقالت:

"مافيش حاجه ياسر بخير !"

لينقبض قلبها وتوقظها نفسها غاضبة "لحد امتى هتهربى!؟"

فأغمضت عينيها لتهرب من جديد!

*****

اخذتِ تصارعه فى غيبوبته بجمالها المتناهى ففى اللحظة الأخيره نجحت فى ان تجتاز من حوله كل شىء ليكون لها ولكن اين هو؟!

*****

(49)

أوصلهم ليرحل، وقبل أن يذهب وجد رحمة تقول له:

"أنا بحبك يا بابا"

ليبتسم وكأن هموم الحياة تتبرأ منه!

(فحضن الكلمة الصافية كفيلة أن تجعل قلبك ينبض بالأمل من جديد) ركب سيارته ليذهب إلى منزله فعبء يومه الطويل وأحداثه قد أرهقت قلبه إلى حد كبير. تذكر كل شيء بدايةً من نزوله مع يسر إلى نهاية كلمة "بحبك" التي قالها قلب طفلة نقية مثل رحمة.

فكر بهدوء أثناء سيره، فدائمًا ما كان يغمس نفسه في حكمة الأشياء وليس سطحيتها. فكر أن كل ما حدث معه هو لحكمة كبيرة وواسعة وعطاء كبير سيقدمه كإنسان قبل أن يكون طبيباَ، وهو تضحيته بحبه الوحيد!

"طب هتصرف ازاى!؟"

" وازاى هتكلم معاها !؟"

"بس هي شافته وشافت كل الحصل.. ياترى هي ال هتتصرف ازاى!؟"

كل شيء تخبط في رأسه ليبتسم مجددا ويقول:

"أسامة.. ربنا ليه حكمة.. اهدى!"

*****

(50)

نهضت من سريرها ووقفت أمام نافذتها تنظر للأمطار

"ياترى امطارى ليها احزان زى قلبى ؟؟" قالتها بألم شديد ثم ذهبت تتوضأ لتصلي ركعتين لله تطفئ نيران لن يخمدها إلا رحمته. وضعت مصليتها وسجدت لله سجدة طويلة.

(فحضن الجسد لسجادة تصل لله كفيل أن يخرج كل شيء بدون كلام فسبحانه يعلم كل شيء حين ينغمر الصمت بنا إلى أقصى درجاته)

نهضت رغم ثقل جسدها لتصلي عليها بقلب مطمئن، قلب طالما كان يعلم ويرضى أن هناك رب كريم يرحم عباده من أي هم.

انتهت فوضعت مصحفها على صدرها لتنام، ولكن ليس ككل مرة، فالمرة هذه آنيسة الله!

*****

(51)

- "كل ده تأخير يا أسامة!؟ وكمان تليفونك مقفول!؟"

قالتها حنان في قلق شديد. أخذ يدها وقبلها قبلة دافئة وقال:

"حقك عليا والله كان يوم أصعب مما تتخيلي.. ماكنتش قادر حتى أتنفس.. بس الحمد لله عدى على خير"

لم تسترح له ولنبرة صوته المليئة بالهم والتعب فقالت:

"طب انت ليه مجتش انت ويسر!؟ أنا وماما استنيناها لحد لما ماما نامت أهه"

- "حصل ظروف كده تتعوض وهتيجي قريب إن شاء الله.. أنا هادخل أستريح علشان بجد محتاج أنام جدا"

قاطعته وقالت: "طب استنى اتعشى"

- "أكلت أكلت" قالها وهو ذاهب لغرفته وسرعان ما أغلق عليه بابه ليهرب من كل شيء وأول الأشياء عقله!

كانت غرفته كبيرة وبها كل شيء حتى حمامه الشخصي. خلع جاكيت بذلته وفتح قميصه كمن يطرد الآلام عن قلبه.

وفتح نافذته ووقف أمامها والهواء الشديد يدفع صدره بقوة ويدفع الأوراق على مكتبه لتتطاير وتتساقط على الأرض ساخطة على كل شيء.

نظر إلى جميع الأشياء من حوله، وأخذ يقول:

"أسامة! هتفوق امتى!!؟"

"هتفوق امتى يا جراح القلب المشهور!!؟ هه مش قادر تداوي قلبك!!؟ عمرها ما هتكون ليك.. دايما تايهة عنك وساكتة.. وختمت إنها شافته قدامك"

فرد على نفسه يقاطعها:

"بس هو في غيبوبة والغيبوبة اللي دخل فيها دي احتمال يفقد ذاكرته فيها!"

- "مفيش أمل يا أسامة فُوق!! فيه أمل إنها ماتشوفهوش بس يا ترى هيكون فيه أمل إنها ماتحبهوش؟؟ وإزاي هتسيبه وهو في الحالة دي!!؟"

دفعه الهواء أكثر بقوة كأنه يعانده في أفكاره.

ليترك كل شيء ويسرح فى الظلام !

*****

(52)

كانت ال 8 صباحًا. فتحت عينيهاوقالت :

"الحمد لله يوم جديد"

كانت امرأه حقا من طراز خاص لا تعرف لليأس سبيل سوى عدة قطرات !

نظرت لترى نفسها في المرآة!

فدائما ما كانت تحب أن ترى نفسها في مرآتها حتى في أسوأ حالاتها.

أخذت حماما باردا كمن تريد أن تطفئ لهيب جسدها الذي لا ينطفأ، لتخرج على صوت خالتها:

"حبيبتي صباح الخير.. شكلك أحسن الحمد لله من امبارح.. يلا علشان حضرت الفطار"

ابتسمت لها دون أن تنطق بحرف، ثم ارتدت ثيابها وكانت انيقة كعادتها، ولم تضع أي مساحيق، كانت بطبيعتها تماما خلافا لجميع أيامها. جلست على سريرها ولم تخرج من غرفتها وكان هاتفها بجوارها.

نظرت لرقم اسامة وترددت في الاتصال به إلى أن انتهى الأمر ولم تتصل بالفعل. فقررت أن تذهب بمفردها لترى ياسر!

وجدت خالتها تضع الإفطار على المنضدة، فتفاجأت وقالت لها:

"حرام عليكي انتي هتنزلي إزاي وانتي تعبانة كده!!؟"

فقالت بنبرة صوت منخفضة يغالبها الأرهاق :

"مش هتأخر متقلقيش عليا"

فهمت خالتها أن تمسكها قائلة:

"طب افطري حتى"

فامتنعت عن كل شيء وأصرت أن تنزل، حتى قهوتها الصباحية التي تعودت أن تشربها لم تشربها اليوم!

وحين خرجت من منزلها رأت سيارة أجرة أمامها فأوقفتها وركبت بها لكي تذهب إلى هناك.

كانت ضعيفة من داخلها، ترتعش من جسدها. كانت تتخيل فقط لحظة وقوفها أمامه وهو في هذه الحالة!

قاطع أفكارها سائق سيارة الأجرة :

"وصلنا ياهانم "

*****

(53)

استيقظ فوجدها 10 صباحا، فقرر أن لا ينزل من بيته.

فحاول ان ينام مجددا ويغلق جميع هواتفه، ولكن ضميره لم يستطع أن ينام مثله؛ فهناك ألف حالة وحالة تنتظر لكي يداويها بعد ربه. فألقى بغطائه ونهض وأخذ حمامه الساخن ليجد أخته تدخل غرفته لتجدها مبعثرة من كل شيء.

أوراق على الأرض، وملابس على الكرسي، وسرير غير مرتب. تعجبت كثيراَ لأن ذلك يخلاف طبيعته المنتظمة!

"إيه ده يا أسامة!؟ ينفع كده!؟ واتأخرت كمان!!؟"

قالتها خلف باب حمامه

فقال بصوت مرتفع وهو في الداخل:

"ماتقلقيش بأة هو الشغل بيطير!؟ هاخد دش بسرعة وماتحضريش فطار لأني متأخر"

"استغفر الله العظيم" قالتها وهي تخرج من غرفته دون أن ترد عليه.

خرج وارتدى ملابسه بأناقة متناهية، ، وقال لنفسه وهو ينظر للمرآة: "تغيير.. ما كل حاجة بتتغير!"

وجد أمه تبتسم بسكينة، ترتسم على وجهها المضيء بالأمان، فانخفض لها وقبل قدميها ويدها وقال:

"صباح كل حاجة جميلة على أجمل ست فى الدنيا"

فتعجبت قائلة:

"انت مين يابني!؟"

فضحك متألما:

"أنا أكتر شخص بيحبك في الدنيا"

وقبلها على رأسها وأخته تنظر له بشفقة فقال :

- "خلي بالك منها ولو فيه أي حاجة حصلت بلغيني"

فأومأت برأسها ليرحل!

(حين نفقد من نحبهم وهم بجانبنا، فذلك أشد صعوبة من فقدانهم وهم بعاد عنا)!

"محتاج لحضنك أوي يا أمي!" قالها وهو ينزل من بيته ليجد نفسه أمام سيارته ليستعد إلى ما سوف يتلقاه!"

*****

(54)

خطوة تتقدم بها وألف خطوة أخرى ترجعها بتردد. لا تعرف هل ما سوف تفعله هو لصالحه أم أنها ستؤذيه، فلطالما أذته بالكثير وذلك لأنها فقط أحبته (فهل عندما نحب نؤلم إلى هذا الحد!؟).

تقدمت لتسأل عنه في مكتب الاستعلامات.

- "لو سمحت يا فندم هو الأستاذ ياسر عبد السلام في أنهي غرفة؟"

قالتها ودقات قلبها تتسارع؛ فحتى هذه اللحظة لا تتخيل بأنه في هذا الوضع.

- "هو في غرفة العناية المركزة! في الدور الرابع على إيد حضرتك اليمين.. آخر غرفة"

أدارت ظهرها ذاهبة للمصعد بهدوء للدور الرابع، تضغط بأصابعها كأنها تضغط على نهاية لا تدركها، ولكن رغم كل ذلك يوجد شيء بداخلها يجعلها قوية إلى هذا الحد!

أخذت تلتفت يمينًا ويسارًا إلى أن وصلت إليه!

وجدته نائمًا كمن ينتقم من الحياة بهدوئه.

نبضات قلبه تتحكم بشاشة ليقول لجميع البشر أنه مازال حيًا رغم قسوة الأيام.

لم تتجرأ أن تدخل إليه. رأته من نافذة الخارجية ويدها تلتصق عليها ودموع تتساقط بعنفوان متماهل. أطباء بالداخل وممرضة تضبط الأجهزة، وهو ساكن في مكانه لا يشعر بأي أحد حتى (هي)! ظلت في مكانها إلى أن انتهى كل شيء وخرجوا، لتستنجد بأحد منهم لكي يعرفها فقط ما أصابه. كان من ضمن المتواجدين في الغرفة دكتور (علي) زميل أسامة فأوقفته قائلة: "دكتور علي صح؟"

- "أهلا بحضرتك.. أخبار صحتك النهاردة؟"

ابتسامة رضا يصطحبها "الحمد لله" (فالحمد لله نكتفي بها دائما للتعبير عن كل حال)

بادرت تقول بكلمات يصطحبها القلق:

"هو أستاذ ياسر عنده إيه بالضبط؟؟"

- "هو حضرتك تعرفيه أو قريبته!!؟" قالها بتعجب شديد.

فتمالكت نفسها وابتسمت لتقول بصوت يصطحبه الفخر:

"ومين مايعرفش الشاعر ياسر عبد السلام!؟" فأومأ برأسه بالإيجاب والاستحياء من بواخة سؤاله ثم قال:

"إحنا شاكين في حاجة بس لسة...

فقاطعته مسرعة : "شاكين في إيه؟؟"

نظر لها نظرة تدل على الاطمئنان ثم قال: "هو الحمد لله زِي ما حضرتك شايفة بخير وقلبه سليم.. بس هو في غيبوبة تقريباً من آثار موت زوجته.. وللأسف إحنا شاكّين كأطباء إنه لو فاق منها مش هيفتكر اى حاجه خالص بس ممكن حاجه تتغير.. الشفاء كله من عند الرحمن"

قال كلماته هذه لتضحك بصورة هسترية:

"إيه اللي انت بتقوله ده!!؟ لا لا مش معقول أكيد فيه حاجة غلط!!"

فتعجب من رد فعلها قائلا: "صدقيني هي دي الحقيقة مع الأسف، وإحنا بالفعل محتاجين طبيبة نفسية علشان نتأهل للموضوع علشان لو فاق في أي لحظة"

صمتت لتحاول أن تستوعب صدمتها بهدوء.

الصدمة التي أخذت دقات قلبها تراوغ بها.

"حبيبي!" قالتها بين أنفاسها لتفضحها دموعها الجارفة أمامه.

استأذنها ليرحل، وهي واقفه تنظر بانهيار قائلة:

"لا يمكن تكون النهاية!"

(حينما تأتي الخيبات، تجردنا من آمالنا لتهين سذاجتنا وثقتنا بأنفسنا بأن هناك الكثير لايتماشى مع مرادنا)!

*****

(55)

بقوة وصرامة عجيبة نهضت من سريرها بملابس المشفى وأخذت مصحفها الذي حرسها بروحانية وهي نائمة، وذهبت حافية القدمين لتودع صديقتها، فجنازتها اليوم!

وبمجرد أن خرجت من غرفتها، وجدته أمامها فابتسمت قائلة:

"ممكن تساعدنى يادكتور؟ عايزة اشوفها" فلفت انتباهها إلى لبسها وأنها لا ترتدي شيئًا في قدميها وقال: "أنا لسة جاي حالا هستناكي تخلصي.. ولو حبيتي هخلي حد يوصلك معاها لحد ما تتدفن"

فأومأت برأسها شاكرة له وقائلة :

"مش هتأخر"

لبست ملابس بيضاء، ولم يمض 5 دقائق وانتهت من كل شيء، وخرجت إليه فلاحظت تعجبه من لون ملابسها.

فقالت بسكينة: "ده البيتلبس على الملايكة". فصمت ولم يرد عليها. فقط قال لنفسه: "فعلا زى الملايكة ربنا يرحمها"

أوصلها إلى الخارج ومعها سيارة توصلها إلى قبرها وأمامها سيارة تصطحب ملاكها، ثم نظر للسيارتين من بعيد واضعا يده في جيبه يتنفس بعمق قائلا:

"اد اى الدنيا دى مسرح كبير"

*****

(56)

هواجس تسطوا عليها بلا رحمة. تذكرت قول دكتور علي "محتاجين لطبيبة نفسية".

ثم قالت فجأة: "أنا أنا دكتورة نفسية !!" وكأنها المرة الأولى التى تكتشف ذالك !

لم تدرك ذاتها إلا خارج المشفى لتجد اسامة أمامها!

أدار ظهره ليجدها، ولم يتفاجأ بكان متأكدًا تماما أنها ستأتي وبمفردها. ابتسم قائلا: "أهلا بصديقتي الجميلة!"

فبادلته الابتسامة وقالت له:

"ممكن نتكلم شوية ؟"

"أكيد" قالها وهو يعرف تماما عن ماذا ستتحدث !

*****

(57)

"هنا بعد اذنك!"

وقفت السيارتين أمام محل كبير للورود.

دخلت المحل قائلة: "ممكن تجبلى اكبر بقاقة قرنفل بكل الوانتها".

أخذتها ودخلت للسيارة مرة أخرى لتقول للسائق:

"أرجوك قول للعربية ال قدمنا تروح مدفن اسمه (روضة الرحمن)"

فاتصل السائق ونفذ إرادتها وهي تبتسم باطمئنان؛ فلأول مرة تطمئن على صديقتها!

مضت نصف ساعة إلى أن وصلا إلى المدفن. دفنوها وعندما انتهوا جعلت الأزهار تحتف حولها !

وعيونها غارقة في بحر لا تهدأ من خلاله ضباب الأجفان

جلست مربعه القدمين وهمست: "دلوقتى الرحمة هتكون معاكى كل مكان"

"شفتي بأة بقينا لوحدنا إزاي!؟"

"بس ماتخافيش لينا رب كريم ورحيم"

"انتي رحتي للملايكة علشان انتي زيهم، وأنا هكمل حياتي بس مش هنا.. أنا مطمنة عليكي أووي علشان حاسة إنك في الجنة دلوقتي"

"واطمني عليا أنا بخير طول ما أنا شايفاكي مرتاحة.. أنا خلاص يا نور هسافر أمريكا وهدور على أي شغل هناك بس يكون مع الأطفال علشان هما اللي دايما هيفكروني بيكي"

ثم تنهدت بعمق:

"وآه يا ستي حققتلك الأمنية اللي كنتي بتتمنيها من 6 سنين.. أيمن جمبك أهه وقبرك جمب قبره!"

انخفضت لتقبل رمال موضعها:

"إلى الجنة حبيبتي!"

ونهضت لتترك كل شيء خلفها وتقفل باب المقبرة وترحل....!

*****

(58)

أخذها في مكان قريب من المشفى ولكن ليس منغلقًا بل يطل على الطبيعة (فدائما ما تفضل الأماكن التي تجعل الإنسان يستطيع أن يتنفس)

سحب لها مقعدا كعادته.. كانت طاولة في وسط الأعشاب الخضراء، وكان ينبعث منها الهواء الدافئ الذي يستقبل عناء الروح لمداواتها برفق.

قال لها بنبرة صوت يصحبها الحماس: "ها تطلبي إيه بأة؟؟"

فابتسمت وقالت:

"كالعادة، انت عارف"

فأشار للجرسون الذي أمامه وطلب منه فنجاني قهوة مظبوط، ثم قال مبتسما ابتسامته التي تطمئنها دائما:

"سمعك اكنك سمعه نفسك بالظبط"

فضحكت وقالت:

"نفس الجملة دايماً تقولها لما آجي أتكلم معاك"

فقال بهدوء: "خرّجي كل اللي جواكي يا يسر"

(حينما ينصت لنا أحد بعين الإحساس وليس بعين الأذن، نشعر وقتها بأن جزءًا كبيرًا من همومنا تلاشى)!

قالت بتلجلج :

"لأول مرة أشوفه كده"

لتصمت وتكمل بصوت يملؤه الانكسار :

"تخيل ياسر هينساني!!"

وصمتت من جديد!

فهمس بصوت دافئ قائلا:

"يسر كل اللي حصل قبل كدا واللي بيحصل واللي هيحصل مقدّر من ربنا.. أكيد فيه حكمة من كل ده.. صدقيني أنا حاسس دي البداية ليكم من تاني"

فمسحت دموعها لتهدأ ونظرت له بانتباه شديد وهو يكمل كلامه:

"الوجع في حياتنا مابيتمحيش.. بيفضل معلم جوانا.. انتى من وجهه نظرك زمان قدمتيله تضحية كبيرة أوي وهو إنه مايفضلش يعاني معاكي لأنك في الأساس ماكنتيش ضامنة هتكملي الحياة من تاني ولا لأ، رغم إنك لو فكرتي في لحظة وقتها كان كده كده بيعاني سواء كنت جمبه أو بعيدة عنه.. وللأسف البعد بيوجع أكتر وانتي أول واحدة دفعت الثمن.. وربنا قدّر من تاني تتقابلوا

ويحصل بينكم أشد عتاب في الوجود وهو الاجتياح والصمت، وأخيرا اتقابلتو ثالث مرة مع نهاية الفصل وهو موت زوجته وفقدانه للذاكرة!"

"مافكرتيش في لحظة وقلتي ليه رحتي معايا المستشفى في اليوم ده بالذات!؟"

"لسة يا يسر مش النهاية.. دي البداية صدقيني.. بس البداية بتبتدي على نضافة من غير أي جراح!"

تكلم هكذا حتى لا يعيش وهمًا ويستيقظ على سقوط يكسره، والأهم من كل ذلك (هي).

(عندما نحب، من الممكن أن نصل لقتل مشاعرنا إرضاءً لمن أحببناه؛ فقط لأن كل شيء قد وهبناه لأجله منذ البداية حتى هذا النبض!)

انتهى من كلامه، ليمنحها الأمل، ليبدأ رحلته مع الألم مرة أخرى، (فيا إلهي كيف نداوي ونحن من نتقطع بداخلنا!؟ وكيف نضحي بحبنا إلى هذا الحد!؟) لمعت عيناها ببراءة من جديد ليصطنع منها أعلى ضحكة مفتعلة تغطي رداء صرخته ببطء قائلا:

"كفاية بس إن سيرته بتخلي عيونك بتلمع كدا.. ها ناوية على إيه بأة؟؟"

قالها وتمنى أن يسمع فقط (لا).

لتخذله أمانيه الساذجة من جديد:

"هكون دكتورته من النهاردة"

ثم شردت فقطع حبل أفكارها:

"عارف إنك هتتعبي.. بس صدقيني حبك ليه أقوى من أي تعب"
نهضت فجأة بحماس: "يلا بينا ورانا شغل كتير!"

لينظر لها طويلا، ويتفاعل صرخة أخرى تقول لقلبه:

"ابتدت المعاناة فرحِّب بها أيها المسكين!!!"

*****.

(59)

وصلت إلى بيتها وأخذت تجمع كل أشياءها للرحيل رحيلًا عن كل شيء، فمن تبقت لأجلها قد أخذها الرحمن. اتصلت بالمطار وحجزت طيارتها لرحلة أمريكا بعد أسبوع؛ فهذه المدة تكفي لتجهز بها كل شيء، وأهم شيء هو آخر وصية لها!

فتح عينيه بعد غيبوبة دامت يومين..!

لم يتكلم ولا يتحدث ولايرى اى احد فقط يثبت نظراته على حائط يقابل عيناه !

كانت الممرضة تجلس بجانبه فقال لها بصوت منخفض:

"انا فين ؟!"

ليجدها ترحل عنه لتنادي الطبيب.

فدخل إليه دكتور (علي) وقال:

"حمدا لله على سلامتك يا شاعرنا يا كبير.. معجزة أنك قمت بالسلامة"

فابتسم ابتسامة بسيطة وكأنه لا يفهم ما يقال !

ليكمل الدكتور كلامه:

"لازم تستريح.. ممكن؟"

فهمّ أن يتكلم فواجهه صداع سيطر على رأسه، فعجز أن يجادل بسببه في أي شيء، فاستسلم وأغمض عينيه ليحاول ان يتذكراى شىء !

*****

عادت مرة اخرى الى المشفى.

هو يتمزق، وهي تتداوى بآلامه.

هو يضحك بقهر لتأخذ آماله.

وصلا إلى هناك ولم يدخل معها.. ذهب ليعمل.

(فعمله هو الشيء الوحيد الذي يلهيه عن كل شيء حتى عنها!)

ظلت جالسة على المقعد المجاور تتأمله بحنين يداهمها لمدة لا تتجاوز 3 ساعات إلى أن استيقظ!

(فدائما انتظار من نحب يتحدى ساعة الزمن)

نظر لها كمن ينظر إلى شخص يشاهده لأول مرة، ثم قال وهو يخرج صوته بصعوبة:

"انتى مين!!؟"

قالها لتغمض عينيها وتعقد يدها لتحتوي جسدها من صعوبة هذا السؤال، فتمالكت نفسها وقالت:

"أنا الدكتورة (يسر جلال)"

فازداد صداع رأسه؛ فالاسم ليس غريبا عليه، كذلك الوجه، ولكن لا يتذكر أي شيء. ثم صرخ فجأة:

"دكتورة مين انا بعمل اى هنا !؟؟"

فهدأته وقالت:

"انت تعبان بس شوية واغمى عليك فجبناك هنا علشان تستريح ؟"

لم ينطق بكلمة

فقالت: "أنا هسيبك دلوقتي تستريح وبكرة هنبتدي أول يوم لينا مع بعض "

قالتها ليقول بأستنكار:

هو انا هعقد هنا كتير ؟

لتقول بوجه بشوش: " شويه لحد ماتكون كويس انشاء الله !"

فقال بأندفاع وعصبية " من حقى اعرف انا عندى اى بالظبط "

اقتربت منه قليلا وقالت بصوت يغالبه الأطمئنان " حادثة بسيطه ربنا اراد انك ماتفتكرش حاجه الفترة دى بس مع مرور الوقت بأذن الله هتفتكر كل حاجه بس الأهم من كل ده ان قلبك يكون بخير !"

اتسعت عيناه غير مصدق مايروى له وازداد صداع رأسه لدرجة هائلة ووقتها تدخلت حقنة مهدئة من الممرضة لتخفف أثر مايشعر به

وخرجت من غرفته وقدمها عاجزه أن تكمل طريقها، لترى روحها أمامها تتلاشى تدريجيا.

أخذت تصبّر ذاتها وتقول:

"حبي ليه أقوى"

"حبي ليه هيخليه يفتكرك"

"حبي ليه هيرجعلك روحك من جديد"

*****

(61)

نسى عقله كل شيء وهو يعمل، ولكن لم ينس قلبه أي شيء. فكر أنه لن يتحمل رؤيتها في هذا الوضع، ولن يتحمل ما سيحدث، ولكن هل الهروب من الفرار إلى فراربائس هو الحل!!؟

قالها لنفسه دون جدوى.

ولكن فجأة غالبته نفسه لتقول:

"جه وقت البعد خلاص !"

وحينها فكر في العرض الذي طلب منه في السفر لأمريكا للعمل في مشفى هناك، ثم بحزم قال:

"أتمنى أيتها النفس أن يكون خلاصك هناك"

ولكن تذكر في هذه اللحظة رانيا ورحمة وعصام، ليبتسم مرة أخرى: "سأكون معهم مهما حدث"

أتى الليل، وكانت في ذلك الوقت في بيتها، فانتبهت عند دخولها من باب المنزل على تليفونها لتجد أسامة. كانت خالتها نائمة كعادتها. دخلت على الفور إلى غرفتها لتجيب عليه بطمأنينة كاملة رغم ما صحب يومها من عذاب لا يتحمله بشر، قائلة:

"ألو "

فقال:

"صديقتي الجميلة عاملة اى؟"

فابتسمت وقالت:

" الحمد لله"

فصمت لمدة وتعجبت من صمته ثم قال فجأة:

"فيه خبر انتي أول واحدة لازم تعرفيه"

انقبض قلبها وقالت:

"خير؟؟"

ضحك ليهوَن عليها الموقف قائلا:

"ماتخافيش مش عروسة هتسرقني منك!.. فيه عرض اتقدملي من مدة للسفر لأمريكا لمدة سنتين للعمل في مستشفى هناك، وأنا وافقت!"

اهتزت وقالت:

"إيه ده!؟ طب... طب وطنط وأختك؟؟"

فقال:

"هاخدهم معايا طبعا.. بس بعد أسبوعين من استقراري هناك"

صمتت تماما ولم تجادله في شيء.. كانت تعلم جيدا لمَ أخذ هذا القرار.. كل ما قالته:

"ربنا معاك" قالتها بابتسامة تحمل الكثير من الشجن.

شعرت وقتها أن سندها في الحياة سيختفي.. سندها في آلامها؛ فدائما ما كانت تتحامل عليه في كل شيء حتى في حبه لها!

سكتت للحظات ثم قالت وهى تحاول ان تتغلب على أفكار تزدحم بها:

"امتى؟؟"

فقال لها وأنفاسه تتخافض:

"بعد أسبوع إن شاء الله"

كان فقط يود لو يسمع "ماتسافرش!"، وفي نفس ذات الوقت يخاف أن يسمعها، وحالفه قدره بعدم قولها ليتأزم مجددا!!

فأغلق معها، لتتخبط من جديد!

تذكرت كلامه عن ياسر.. تذكرت كل لحظة كانت تبكي بها ليمسح دموعها برفق.. وأخيرا تذكرت حبه الذي لطالما تجاهلته حتى لا تفسد العلاقه بينهما، أو بالأصح بينها وبينه.

(ترى لِمَ نتحامل على من يحبونا دون أي رفق بمشاعرهم!؟)

وما صعّب عليها الأمر هو قدرتها على التمثيل أمامه أنها لا تشعر بأي شيء!

*****

(62)

ألقى بجسده على سريره ناظرا إلى سقف غرفته بهدوء، وتحدث بصوت مرتفع كأنه يريد أن يُسمع نفسه كلامًا لا تود سماعه:

"آخرتها إيه حب من طرف واحد!؟؟"

"هتفضل لحد امتى بتمثل ببراعة وكاتم مشاعرك!!؟ وحتى لو أظهرتها هيفيد بإيه وهي هتتاخد بالشفقة!!؟ هتفضل لِحد امتى موجوع وتعبان وكمان بتداويها من دوا بيموتك بالبطيء!!؟"

"بس أنا حبيتها أووي! إزاي بس هسافر وهسيبها!!؟"

"طب هو ده الحل الهروب!!؟"

قال قلبه هذه الكلمات كأنه يريده أن يتراجع"

فصرخ ولم يدرك نفسه وهو ينهض فجأة من سريره قائلا:

"أيوه هو ده الحل.. كفاية كفاية بأة!"

سمعت حنان صراخه، ففزعت وفتحت باب غرفته فجأة، لتجده هكذا فقالت بقلق: "أسامة.. فيه إيه انت كويس!!؟؟"

فبكى أمامها لأول مرة؛ فدائما يكره أن يكون ضعيفًا أمام أحد وخاصة أخته التي تأخذه مثالًا للقوة والصمود.

همّ أن يتكلم فاقتربت وقالت:

" ماتقولش اى حاجه انت مش محتاج غير ده!"

واحتضنته برفق

هدأ بعد لحظات تماما، ليلتفت لها وهو يقول بجدية:

"أنا هسافر يا حنان أمريكا.. وانتم هتسافروا معايا"

توقعت هذا فلم تتعجب من هذا القرار !

فقالت بصوت هادئ:

"أسامة اعمل اللي يرتاح عليه قلبك.. بس ماتاخدش أي قرار في لحظة غضب ووجع علشان ماتخسرش على الأقل نفسك"

ضحك ساخراَ من كلامها ليقول بين أنفاسه:

"ما أنا خسرت قلبي!"

فنظرت له بشفقة ثم خرجت من غرفته وأغلقت الباب خلفها. فتح درج مكتبه وأخرج علبة سجائر كان قد أخذها من مريض وهو يراوغه بأن يقلع عنها قائلا له: "قلبك الجميل ماينفعش تدمره بإيدك". أخذ يضحك بشدة ثم أخرج سيجارة ليدخن لأول مرة! (فلماذا عندما تطاردنا الآلام نفعل الأشياء التي تهدنا أكثر!؟)

نفخ بها طويلا ليستمتع بدخان رماد قلبه.

فهل هو انتصار يشعر به!؟

أم هو عزاء لقلب لم يملك سوى أماني خائبة!؟

نظر لسيجارته بتأمل وأخذ يقول:

"دى مكافأة الدكاترة !"

ليضحك مرة أخرى ضحكة ساخرة على كل شيء، وأول الأشياء لعبة حبه الساذجة!

*****

(63)

صباح جديد ولم تنتهِ آلام ذكريات مازالت عالقة ولا تنوي الرحيل.

قررت أن تذهب إلي اسامة

ولكن ترى ماذا ستفعل؟ هل تتأسف له!؟

أم تصارحه وتقدِّر إحساسه؟ أم ستمنعه من الهروب؟ كل هذا التفكير صاحبها وهي ترتدي ثيابها، فهدأت أخيرا بأن تودعه بصمت!

ذهبت للمشفى مرة أخرى، لتجده أمام غرفه ياسر يتأمله بهدوء، فوقفت بجانبه بابتسامة هادئة لا يصحبها أي شيء وقالت:

"صديقي الجميل صباح الخير!"

فالتفت لها ناظرا لعينيها: "صباح التضحية!"

ليذهب من أمامها على الفور، فهرولت خلفه قائلة:

"أسامة ممكن بس...

فقاطعها :

"ماتقلقيش قدامى 7 ايام لسة !"

(عندما نضحي نضحي بمن نحب!؟ لماذا لا نتمسك لنصرخ لنقول "لا إلا حبنا!"!؟ لماذا نستسلم!؟ لماذا نلجأ لخذلان أنفسنا في أول مطاف يقابلنا!؟)

هرب منها وعاتب قلبه على رده القاسي، وفي نفس الوقت عذر نفسه على وجع لا يحتمل (ولكن ترى كيف يكون الوداع وليس في الوداع وداع من الأساس؟!)

رحل عنها ليتداوى في عمله من جديد، وهي لم تمض لحظات ورحلت لترى المستحيل !

وقفت أمام غرفته تلتقط أنفاسها وتحاول أن تتغلب على ارتباكها، لتفتح الباب بإشراقة مبهرة تقول بها:

"شاعرنا العظيم عامل إيه النهاردة؟؟"

نظر لها طويلا يحاول أن يسترجع أي شيء دون فائدة.. لا يشعر سوى بدقات قلبه تتسارع عند رؤيتها، وعقله مشتت عاجزعن اسمه حتى !

"شاعرنا!!" قالها بذهول.

فابتسمت وقالت بحنين فضحته عيناها:

"أجمل شاعر"

تلاصقت عيونهما فجأة، ومضى الوقت وكلام عيونهما لا ينتهي.

هو يقول:

"مين أنتِ؟؟ حاسس أنك شخص قريب مني اوى"

وهي تقول:

"وحشتنى وحشتنى اوى!!"

هو يقول:

" ياريت افتكر بس .. !"

لتقول:

" ربنا كبير ..!"

قاطعها علي قائلا:

"أستاذ ياسر عامل إيه النهاردة؟؟ شكله أحسن"

فابتسم له بامتنان، وقال بنبرة صوت يغلب عليها الإرهاق والتعب:

"ينفع اخرج من هنا ؟؟"

فضحك يداعبه قائلا:

"انت لحقت يا عم تزهق مننا!؟ ماتقلقش إن شاء الله في أقرب وقت" كشف عليه ليطمئن على صحته، لتخرج معه يسر، وقبل أن تخرج تقول له: "لسة مش هتخلص مني دلوقتي"

*****

(64)

"من بعد إذن حضرتك.. ممكن أنا أشرف على حالة أستاذ ياسر.. أنا دكتورة نفسية وحاصلة على شهادات كتير من برة.. إلى جانب ماجستيري من إنجلترا"

انتهت من جملتها متعجبا كيف لهذه الفتاة أن تحصل على كل ذلك!؟ كانت بالفعل أصغر من سنها بمراحل من يراها من بعيد يظن أنها مازالت تدرس في الجامعة، فضحكت وقالت: "ماتستغربش كنت بس بشتغل على نفسى كتير مش اكتر"

وافق على الفور وقال:

"شرف لينا يادكتورة طبعا بس هنتعبك انك هتوصلى متابعه معاه حتى ولو مشى من هنا علشان لو لقدر الله حصل اى حاجه!"

فأومأت بالأيجاب بحماس؛ فهذا بالتحديد ما تمنته.

مضى الوقت سريعًا، لتمضي الأيام. (فغالبا الأيام في عمرنا تتفاوت لتسبق الزمان، فكل شيء أصبح يمضي في الحياة كالسراب)!

مضى حوالي 5 أيام، تأتي إليه لتذكره مع الوقت بنفسه أولا وهو لايزال عاجزًا عن كل شيء.

إلى أن صادفها مرة بقوله:

"ممكن توريني حاجة أنا كاتبها؟"

كانت تستعد لهذا السؤال مثل استعدادها لأشياء عديدة، فأخرجت من حقيبتها كتابًا له كان قد كتبه منذ سنة، وكان المفضل لها دائما اسمه (إلى الأبد يتواجد الأمل). أخذ يطلع عليه بشدة يبعثر بين أوراقه كأنه يريد أن يبحث عن شيء ما ولكن يعجز عنه. ثم ابتسم قائلا ناظرا إليه:

"حاسس ان ده بجد كلامى بس للأسف مش فاكر اى حاجه " ثم واصل بأسى " صعب اوى ان الكاتب ينسى احساسه !)

فرغم مرور أيام عديدة، وجهدها وإصرارها على أن يتذكر أي شيء ولو بسيط، لم يتذكر اى شىء ولم تيأس ابدا.

فأتى الليل ونهضت من مكانها تودعه:

"هسيبك تنام وتستريح"

فنظر لها طويلا ثم قال: "شكرا لك يا دكتور"

فابتسمت قائلة :

"اسمي يسر.. يسر وبس"

ليرد عليها بأبتسامتها التى انعكست على وجهه:

"يسر وبس"

*****

استيقظت على صوت منبهها. هذا اليوم كان يوم سفرها. تناولت إفطارها بهدوئها المعتاد، ووضعت كشكولًا صغيراَ في حقيبتها لتذهب به إليه!!

نزلت من عمارتها وأخذت سيارتها لتذهب بها للمشفى وهي شاردة تماما.

(هيفتكرنى ولو مافتكرنيش ، هيفتكرها !؟)

إلى أن أقنعت نفسها وهدَّأتها بأن كل شيء بداخلها سيخرج بمفرده دون أي استعداد له!

لم تمر لحظات ووجدت نفسها أمام المشفى.

صعدت بهدوء إلى غرفته، فوجدته بمفرده يقرأ الكتاب الذي طلبه من يسر. ترددت كثيرا في أن تدخل، وانتهى الأمر أنها لم تدخل بالفعل!

قالت للممرضة التي رأتها أمامها:

"ممكن بعد إذنك تدي الكشكول ده لأستاذ ياسر؟"

فاندهشت لها:

"أقوله من مين حضرتك؟؟"

ـ "هو هيعرف لوحده مع الوقت!"

دقت الممرضة على الباب، وكان قد نُقل إلى غرفة عادية بعد أن استرد صحته، فقال بصوت مرتفع:

"ادخل"

فدخلت فسلمت له ذلك الكشكول.

نظر له بدهشة وقال:

"عفوا إيه ده!؟"

فقالت:

"فيه آنسة جابته لحضرتك ومشيت على طول"

أمسك الكشكول ليقلّب صفحاته في ذهول، واشتم به رائحة ورد القرنفل.

تأملته من بعيد وهي تبتسم لتقول بين أنفاسها:

"ارتاحى بقبرك امنيتك الأخيرة اتحققت" ثم رحلت.

فتح صفحته الأولى فوجد بها:

"الرسالة الأولى : من نور الى فارسها النائم !"

*****

استيقظت فجأة تنظر لنتيجتها التي بجانبها، فانتبهت أن موعد سفره اليوم!

اتصلت به مرارا دون جدوى!

"أسامة!" قالتها بحسرة، وهي مازالت تتصل به دون جدوى.

" ياترى سافر !؟" عقلها متخبط كثيرا من كل شيء.

نزلت مسرعة وذهبت إلى المشفى، ولكن ليس له هذه المرة!

وصلت إلى غرفة الأطباء، ففتحت الباب بعنف قائلة:

"أسامة!!"

ولم يكن في الغرفة سوى دكتور علي.

فابتسم قائلا: "تفضلي"

شكرته وقالت وهي تلتقط أنفاسها:

"أسامة فين؟؟ قصدي دكتور أسامة فين؟؟"

فنظر لها بدهشة وقال:

"أسامة مسافر كمان ساعة"

"إيه!!؟" قالتها بفزع، وفرت من أمامه بدون مقدمات.

أخذت تجري فقط لكي تلحقه قبل أن يغادر!

سرعان ما أخذت أول تاكسي صادفها قائلة:

"مطار القاهرة لو سمحت وياريت بسرعة!!"

- "بسرعة إزاي!!؟" قالها السائق بأستنكار.

(فالمسافة بين الساحل الشمالي والقاهرة بعيدة إلى حد ما) فقالت بصوت عال تحاول أن تطمئن به نفسها:

"هلحقه أكيد هلحقه إن شاء الله"

*****

(67)

يتمنى لو يستيقظ من كل ذلك.. يشعر دائما أن الحياة مسرح؛ فالحياة جعلت الكرة هذه المرة في ملعبه لكي يقوم بأداء دور يصعب على أحد أن يتحمله.

كان جالسا في المطار ينتظر فقط موعد رحيل بلا آمال. ألحت عليه أخته (حنان) أن تذهب معه ولكن رفض بشدة؛ فدائما ما يكره الوداع في اللحظات الأخيرة!

كان شاردا ينظر إلى صورها ليبتسم لها بهدوء، إلى أن انتبه:

"دكتور أسامة!؟"

ليجدها هي:

"(هالة)!! غريبة!! انتي بتعملي إيه هنا !!؟"

فابتسمت وقالت: "طيارتي كمان شوية"

فضحك بمرارة قائلا: "إيه ده أنتى كمان!!"

فتعجبت وقالت: "حضرتك مسافر كمان ؟؟"

فهَمّ أن يجيبها، ليقاطعه صوت من بعيد يقول:

"أسامة!"

فالتفت لجهة الصوت واتسعت عيناه ناظرا لها غير مصدق ما يراه. نهض ليقترب منها وهي واقفة لا تتحرك، ذهنها مشتت، دقات قلبها لا تهدأ.

ترى ستمنعه أن يغادر أم ستكون حتما نبضة بلا موعد؟؟

"تمت بحمد الله"



الحب هو المسار العكسى لكل شىء هو الوهم وما
اجمله كوهم .. هو الطاغية المتبلورة فى بلورة
البرائه .. هو التوقعات الزائفه التى تملئها الأحلام
وتذهب بها بعيداً حتى لا تنصدم بالواقع !

آية جمال



تصميم الغلاف
محمد مجدي

